جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي الجزائر
كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية
إصدارات
مخبر بحث التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للجزائر

# التَّاريخُ الإجتماعي للجزائر والشخصية الوطنية

## خلال العهد العثماني (1519-1830)

الأستاذ الدكتور علي غنابزية
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الوادي - الجزائر

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم العلوم الإنسانية
مخبر بحث التاريخ الاقتصادي والاجتماعي
للجزائر

# التاريخ الاجتماعي للجزائر والشخصية الوطنية خلال العهد العثماني (1519-1830)

الأستاذ الدكتور علي غنابزية
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الوادي – الجزائر

عنوان الكتاب :التَّارِيخْ الإِجْتِماعِي للجَزَائِر
والشخصية الوطنية خلال العهد العثماني (1519-1830)
المؤلف : الأستاذ الدكتور علي غنابزية

الحجم : 16x24 Cm
عدد الصفحات : 217
الإيداع القانوني : جانفي 2025
ردمك : 978-9969-574-30-2
تاريخ النشر : 2025

التنفيذ الطباعي :

للطباعة والنشر والتوزيع
سامي
جميع الحقوق محفوظة ©
الجزائر
2025
032 14 93 39
imprimerierimel39@gmail.com

# الإهداء

إلى طلاب العلم الذين يبحثون عن الحقيقة.
إلى كل باحث تجرد من الأنانية وحب الذات.
إلى الذين ثبتوا شخصية الجزائر في أحلك الأوقات.
إلى كل جزائري مخلص لوطنه في أقسى الأزمات.
إلى البسطاء من الطبقات الشعبية أساس هذا التاريخ المجيد.

أهدي هذه البحوث والدراسات

**الأستاذ الدكتور علي غنابزية**

# المقدمة

إن أحداث التاريخ، وأحوال البشر، ونشاطاتهم اليومية، وسلوكهم الاجتماعي، يمثل أساس التاريخ، ولبنته الأولى في بناء المعرفة التاريخية. فالمجتمع بكل مؤسساته، وجامعاته وأفراده، وعلمائه ومفكريه، وعامة الناس في مدنه وقراه؛ هم الروح الحية، والعرق النابض بعناصر هويته، ويرسون - بكل صدق وعفوية - ملامح شخصيته الأصيلة.

والجزائر وعبر مراحلها التاريخية، عرفت بأمجادها الحافلة، وإنجازاتها الناصعة، والتي أقامتها أفكار وأيادي أبنائها البررة، وطبعت كل عصر بطابها الخاص، الذي صار نبراسا منيرا لصفحاتها الخالدة. وتتجلى الحياة الاجتماعية بمظاهرها البارزة في مختلف طبقاتها، والتي نبعت منها الشخصية الوطنية ولاسيما في العهد العثماني، والذي تعمقت فيه العناصر الأساسية، والتي انبثقت من ذلك السلوك اليومي للساكنة ضمن العمران البشري في كامل أنحاء القطر.

إن الدارس المتفحص لهذه الفترة المجيدة - بغض النظر عن الهفوات والمزالق التي لا يخلو منها شعب فوق الأرض - فالهوية فيها بقيت محافظة على عناصرها الساطعة، لأنها وجدت البيئة الصالحة، والفسحة الرحبة، والرسوخ الإيماني في النفوس والأفئدة.

إن العهد العثماني للجزائر، يمثل منعطفا هاما، تبلور فيه المجتمع الجزائري، وأخذت الشخصية الوطنية تتجذر من خلال الوحدة الترابية للوطن- الذي كان سابقا - موزعا بين الدول المجاورة في الشرق الحفصي، والغرب المريني، ضمن التداخل والصراع الذي مثل حركة المد والجزر، وحسم في هذا العهد بتحرير حدوده الحالية، بعد كفاح مرير، وجهود بذلت ممن سهروا على تحقيق الوحدة الكاملة.

وسهر الحكام الأتراك في الجزائر على حماية البلاد وصيانها، فتركوا اللغة العربية سيدة في أرضها، تنمو وتترعرع، يتم بها التحصيل العلمي، وتدون بها المعارف، وتؤلف بها الكتب والمصنفات، وهي إلى جانب ذلك لغة الخطابة والبلاغة، والمعاملات اليومية وإن اختلطت بها بعض الألفاظ الشعبية. كما صانوا الدين الإسلامي الحنيف، ورفعوا مقامه عاليا ومجدوا ذكره، وشجعوا الزوايا والمساجد في نشاطها الدؤوب، وخاضوا تحت رايته الغراء الجهاد في سبيل الله والذي صار نعتا على الجزائر، والتي عرفها الناس يومئذ باسم (دار الجهاد).

وكان الشعور بالانتماء للجزائر، راسخ لدى الأتراك، فلم يتنكروا للبلاد قيد أنملة، بل دافعوا عليها إلى آخر رمق، وبذلوا أقصى ما عندهم من جهد، ولكن الخصم كان أقسى، فسقطت البلاد، ولم تسقط الهوية.

إن دراسة المجتمع الجزائري في الصفحات الموالية، كشفت عن أبرز الملامح للتاريخ الاجتماعي، ومدى تفاعل الإنسان الجزائري والتركي على حد سواء في الميدان، عبر مسار متكامل للعناصر التالية:

-لقد مجد الشعب الجزائري مبدأ الخلافة الإسلامية، وأعطاها قدسيتها ونورها الذي شع في نفوس الجزائريين، معتبرين الخلافة التي رفع رايتها العثمانيون، هي المبدأ الأسمى، لأنها أبقت الأمة الإسلامية موحدة من تلمسان إلى القوقاز، ومن جبال طوروس إلى غدامس وغات، وصار بفضلها للمسلمين امبراطورية عظمى، وكيان ذو سيادة تحسب له الأمم والشعوب القوية حسابات كبيرة. ولما غابت الخلافة، انفرط العقد وتناثرت أراضي المسلمين، وصارت ضحية في أيدي الفجار من عتاة المستعمرين، ورعاة الصليب الحاقد، الذي احتل الجزائر، وحاول طمس هويتها، وعمل على جعلها تابعة على الدوام؟

وعندما نتبعت كتابات أبو القاسم سعد الله، حول التاريخ العثماني في الجزائر، والمتناثرة في مؤلفاته، تبين كيف صانت السلطة العثمانية في الجزائر، عناصر الهوية، وتركتها تتفاعل في عمق المجتمع، يتنفس عبيرها، ونفخت في روحه الأمل الدائم، لأنها نابعة من حضارة عريقة متكاملة الأركان. وكانت اللغة العربية لسان حال الجزائري في

المجتمع ولاسيما الأوساط العلمية، بها يحرر ويؤلف ويعلم في المدارس والمساجد والزوايا والمنتديات العلمية.

أما الدين الإسلامي فهو المظلة التي تجمع كل الساكنة، لأنه مثل الانتماء الأساسي لكلا الطرفين، الجزائري والتركي على حد سواء، ومن خلاله برزت الثقافة الوطنية الجزائرية المتميزة والمتشبعة بالقيم النبيلة، وتجلت مظاهرها في التراث الزاخر، وترسخت جذورها في القيم الاجتماعية، والعادات والتقاليد الشعبية، المتصلة بالدين والعقيدة، والتي أبقت المجتمع محافظا لم يتأثر بالغزو الفكري الأوروبي رغم الاحتكاك الكبير مع شمال البحر المتوسط؛ وحينها بقي الجزائري يمتلك الشعور القوي بالانتماء لبلاده، ومعتزا بوطنه، وله كل الاستعداد للتضحية والفداء بروح كريمة ونفس عزيزة.

إن عناصر الهوية المتفاعلة، جعلت المجتمع الجزائري في العهد العثماني، مجتمعا متعلما، أثمر العدد الكبير من العلماء الذين انساحوا في الآفاق، بل أسسوا روابط ومتنوا علاقات خارج الجزائر وخصوصا مع إفريقيا المجاورة للجنوب الجزائري، تلك البقاع التي كانت في أمس الحاجة إلى بث الوعي، وتعليم الناس أصول الدين الإسلامي، وهذا ما فعله الشيخ عبد الرحمان الأزهري في دارفور بالسودان، فقام بنشر الدعوة، ونجح نجاحا باهرا، وتركت نشاطاته الصوفية أثرها في سلطان البلاد، وعامة أفراد المجتمع، وأسس عددا من الزوايا. وكان لرحلته

إلى السودان أثرها في مسيرته بالجزائر، والتي أهلته للتربية، ومنح الأوراد، وجمع الأتباع، ووضع أسس طريقته الصوفية الرحمانية، والتي تجلت أعمالها في مقر إقامته بالحامة قرب العاصمة الجزائر، وأثر في المجتمع المحلي في موطن مولده الأصلي في آيت إسماعيل ببلاد القبائل، حينما توافد عليه تلاميذ حملوا رسالته مثل الشيخ أحمد التجاني الذي أسس طريقة مستقلة، أو الذين ساروا على نهجه وأسسوا زوايا حملت أسماءهم مثل الشيخ عبد الرحمان باش تارزي القسنطيني، والشيخ محمد بن عزوز البرجي الطولقي وغيرهم، وكل واحد يدين له بالولاء الروحي عدد من القبائل والأتباع.

كما أن الشيخ المختار بن أحمد الكنتي، أصيل منطقة أدرار في الجنوب الجزائري، والذي فاض علمه، في نواحي نهر النيجر وموريطانيا والصحراء، وبلغ الإسلام في أوساط الزنوج. واستطاع تكوين جيل من العلماء في تلك البقاع، الذين صاروا شيوخا لهم مصنفات وعلوم مدونة. كما جدد الطريقة القادرية التي بذر أصولها أجداده، وأسس زوايا، وصارت له مكانة روحية كبرى بين قبائل الصحراء من إقيم ولاتا في الغرب إلى ادرار في الشرق، وتمكن من جمع شمل قبائل التوارق والأفارقة على البر والتقوى.

كما أبرز هذا الكتاب تلك العلاقة المتينة بين السلطة والرعية في المجتمع المحلي، ومراعاة أحوال الأشراف ورجال الصلاح من

المتصوفة والعارفين، الذين ذاع صيتهم في المجتمع، وميزتهم السلطة بإعفائهم من الضرائب، لأنهم يعتبرون همزة الوصل مع عامة الناس، وهم رصيد للسلطة، تستعين بهم في أصعب الظروف. وعرضنا بالتحليل لوثيقة إعفاء صالح باي قسنطينة، الشيخ سيدي عون السوفي من الضرائب المخزنية. واستدرك الأمر بإعفاء السيد محمد الشريف الحسني ببلدة البهيمة، في عهد الباي الجديد حسين بوحنك. وهي وثيقة هامة في تحديد جانب من العلاقة الاجتماعية، ودور السلطة المحلية في تنظيم الروابط، ونسج أساليب التعامل مع الساكنة في تلك المناطق الصحراوية التي حكمتها بالولاء لرجال التصوف، ودورهم في مساعدة السلطة وتبادل المصالح.

كما تبرز هذه الدراسة نموذجا فريدا في الكتابة التاريخية، وفي مقدمته تاريخ المدن ونشأة القرى، والتي يعتبر الشيخ محمد العدواني السوفي رائدا في تسطير صفحات شملت بلاد المغرب الإسلامي، ولكنه ركز على المناطق الهامة في الصحراء والجزائر عموما، ومنها منطقة وادي ريغ، والتي حاولنا تحرير الأخبار التي أوردها العدواني عن أهم المعالم العمرانية في قراها المختلفة، ومظاهر حياة المجتمع، وعلاقاته بالسلطة الحاكمة التي تولتها أسرة بني جلاب، واستعباد السكان في فترة من حياتهم، ودور المرأة. وعلاقات هذا المجتمع بسكان الجوار

من قبائل وادي سوف، وأثر الطريقة الشابية ودعاتها في الجانبين الروحي والعلمي.

لقد عرف العهد العثماني بعدة مظاهر اجتماعية، واخترنا مظهرين بارزين:

- الدور العلمي والروحي والثقافي، للطريقة الصوفية "الشابية" وانعكاسات سلوكها على بلاد الجريد والجنوب الشرقي الجزائري ولاسيما إقليم وادي سوف، وظهر الارتباط الكبير لتاريخها بهذا الإقليم منذ نشأة الطريقة، واستمرار العلاقة العلمية والروحية بالخصوص إلى نهاية القرن التاسع عشر. ولها مآثر خالدة، وبصمات باقية، وآثارهم الملموسة في مساجد وادي سوف العريقة، التي هي قلاع العلم والدين، وحافظت على مقومات الشخصية العربية الإسلامية لهذا الإقليم.

أما المظهر الأخير والذي عرفه هذا العصر، وترك أثرا على العلاقات الداخلية والخارجية للجزائر، هو انتشار الأوبئة، وحصدها العدد الكبير من الأرواح، وتأثيرها السيئ على الحياة عموما بكل مجالاتها. وتم الاطلاع على العوامل التي تسببت في الانتشار، بدخول الوباء مع ركب الحج، أو مصاحبا للتجار وضمن بضائعهم، أو عند الاحتكاك مع البحارة في السفر أو الحروب. وتعاملت السلطات مع الوباء بإمكانياتها المتوفرة، واتخذت الإجراءات اللازمة، كالحجر الصحي، أو

المكوث في البيوت والمحلات، أو الالتجاء للمناطق النائية. والتصدي لعلاج المصابين بشتى الطرق التقليدية والعصرية، وختم البحث برصد أثر الوباء على نسيج العلاقات وعلى الحياة الاجتماعية.

إن هذا الكتاب، هو ثمرة للدراسات العلمية الموثقة، والتي نحاول من خلالها فتح المجال للدراسات في التاريخ العثماني للجزائر، الذي مازال في حاجة ماسة إلى تعميق البحوث في مجاله، وإرساء قواعد معرفية، يهتدي بها الباحث، ويستنير بها المجتمع الذي يريد الاطلاع على تاريخ بلاده. وحاولنا الاقتراب من الموضوعية، ووضع الأخبار والحقائق في نصابها، وتبقى القضايا الغامضة، إشكاليات جديدة، ونواة لدراسات مستقبلية، نقدمها للباحثين في إطار النشاط الأكاديمي.

**الأستاذ الدكتور علي غنابزية**
**الوادي في يوم الأربعاء 12 جمادى الأولى 1446هـ**
**13 نوفمبر 2024م**

# القسم الأول

## الخلافة وعناصر الشخصية الجزائرية في العهد العثماني

**أولا:** قدسية منصب الخلافة الإسلامية (العثمانية) لدى الجزائريين 1518-1962

**ثانيا:** الشخصية الجزائرية في العهد العثماني من خلال كتابات الدكتور أبو القاسم سعد الله

# قدسية منصب الخلافة الإسلامية (العثمانية) لدى الجزائريين1518-1962

المقدمة:

يتميز التاريخ الإسلامي بمفاصله الواضحة، ومراحله الثابتة، ومظاهره المسطرة في الكتب والأسفار، والتي تولت كتابتها بعض الأقلام المأجورة، والنخب المدسوسة، التي تناصر المدارس الأجنبية، وتنظر بعين واحدة، وحملت لواء التشويه والتزييف، وَسَمَّت الأشياء بغير مسمياتها، فضلت ضلالا مبينا. ومن تلك القضايا التاريخية الهامة، والمصطلحات المظلومة، منصب (الخلافة) الذي مثل جزءا من السياسة الشرعية الإسلامية، وتناولته كتب التراث الأصيلة والتاريخية، بداية من الخلافة الراشدة، ثم الأموية والعباسية، وبعض الدويلات التي رفعت شعارات قريبة، وآلت في النهاية إلى الخلافة العثمانية، التي أسقطت تحت معاول الماسون، وحوربت من الصهاينة، والاتحاديين، ومن آزرهم من الحاقدين على الإسلام، ووصفوها ـ زورا وبهتانا ـ بالدولة الدينية (الثيوقراطية)، إمعانا في التشويه.

وتعتبر الخلافة العثمانية، التي يحكمها السلطان (الخليفة)، جزءا من تاريخ الجزائر في (العهد التركي) منذ انضوائها تحت رايتها، وظلت الجزائر وفية لها طوال هذا العهد وبعده.

والإشكالية التي تفرض نفسها في هذا المقام، ما هو مفهوم وحكم الخلافة في الشريعة الإسلامية؟ وتحديد ظروف ودوافع انضواء الجزائر في حكم الخلافة العثمانية، وانتمائها (للدولة العلية) ؟ وبحث مفهوم القدسية لمنصب الخلافة، ومكانة السلطان الروحية لدى الجزائريين خلال العهد التركي بالجزائر؟ وعلاقة المجتمع الجزائري بالخلافة ومدى تمسكهم بشرعيتها خلال العهد الاستعماري؟ وموقف الاستعمار الفرنسي من الخلافة وأنصارها في الجزائر في إطار الحركة الوطنية الجزائرية ومبدأ الجامعة الإسلامية.

والجدير بالذكر أن المجتمع الجزائري، بقي وفيا لمنصب الخلافة، رغم كل الثورات والانتقادات للنظام التركي، باعتباره ولاء للدين، الذي لم يجد له مناصرا في ذلك العهد الذي ران فيه الاستعمار، ولا ملجأ للمسلمين، إلا العمل على مؤازرة الخلافة، لعلها تدافع عن ذمار المسلمين، وتسترجع البلدان المغصوبة إلى عمق الأمة الإسلامية.

**1) الخلافة في الشريعة الإسلامية:**

عند البحث عن تعريف دقيق لمعنى الخلافة أو الإمامة العظمى، تعني في الأدبيات التاريخية:(الحاكم الأعلى، أي الخليفة أو السلطان أو الملك أو رئيس الجمهورية).[1]

1 - برنار لويس: **اسطنبول وحضارة الخلافة العثمانية** ، تر وتع سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، الرياض، 1982، ص64.

أما المفهوم العام لها هو "رئاسة الدولة الإسلامية" والخليفة هو الإمام الأعظم ورئيس هذه الدولة، وله وظيفتان، أولها إقامة الدين وتنفيذ أحكامه، والثانية القيام بسياسة الدولة التي رسمها الإسلام. [1] وإلى هذا المنحى أشار فقهاء السياسة الشرعية، فقد ذكر الماوردي، أن من مقاصد الخلافة:(حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة ... لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة). [2] وفصلت المصادر في صفات الخليفة، ومن تولى هذا المنصب، وعمقتها كثيرا، مثلما ورد عند ابن تيمية وغيره.

(كان السلطان العثماني حاكما مطلقا مسلما، والصيغ الدستورية النظرية الوحيدة التي وضعت بالنسبة لمصدر وطبيعة وحدود قوته، ودائرة نفاذها القانوني كانت ما نص عليه الفقهاء والكتاب وتلامذتهم. وتذهب جذور النظريات العثمانية عن الدولة والسلطة الحاكمة العليا إلى النصوص الدستورية في الشريعة الإسلامية). [3]

والخليفة العثماني، لا يضع القانون، بل هو نفسه مقيد بالقانون،

---

1 - سعيد حوى: **الإسلام**، شركة الشهاب، ط2، الجزائر، 1988، ص ص 372-373.

2 - الماوردي: **الأحكام السلطانية**، دار الكتب العلمية، د ط، د ت، ص19.

3 - برنار لويس، المرجع السابق، ص59.

الذي وجد قبل منصبه، وذلك لتجنيب العالم من الخراب الذي يمكن أن يلحق به بسبب الميل الطبيعي في الإنسان إلى التخريب، وبما أن الحاكم رقيب على القانون السماوي فان إطاعته واجب ديني، ومن ثم فان عصيانه إثم كما هو جريمة في نفس الوقت.[1] وهذا المبدأ الذي يحمل معاني التبجيل والاحترام لمنصب الخلافة، التي تمثلت في شخص الخليفة، هي طابع القدسية الذي دأب عليه الناس في مختلف أنحاء الخلافة.

**2) انضواء الجزائر تحت لواء الخلافة العثمانية:**

بعد تفكك الدولة الموحدية في بلاد المغرب الإسلامي، انقسمت إلى ثلاثة كيانات سياسية، فغطت الدولة الحفصية رقعة ضمت تونس وطرابلس والشرق الجزائري، والدولة المرينية في بلاد المغرب الأقصى، بينما مثلت الدولة الزيانية المغرب الأوسط الذي يضم وسط الجزائر وغربها، وكانت تلك الكيانات مزدهرة صلبة في بادئ الأمر، ثم وقعت في مستنقع الانقسامات والصراعات الداخلية (... فخروب داخل كل دولة بين الطامعين في العرش، وما يجره ذلك من المحن والبلايا، وحروب بين الدول الإسلامية تقود الحفصيين تارة إلى فاس، وتقود المرينيين، تارة أخرى إلى تونس، ودولة بني زيان بين

1 - برنار لويس، المرجع السابق، ص64.

شقي الرحى، تنتمي مرة لهذا وتنتمي مرة أخرى لذلك، وتعلن وجوب التخلص منهما). [1]

وكانت القوى البارزة يومئذ، الدولة العثمانية بقوتها البحرية، وفي مقابلها الدول الأوروبية المسيحية، والتي خاضت معركة الاستئصال ضد المسلمين ولاسيما بعد سقوط الأندلس، وجعلت اسبانيا من أهم أهدافها الإستراتيجية، احتلال بلاد المغرب الإسلامي، وأوصت الملكة إيزابيلا قبل موتها (1504) بإلحاح لخليفتها بتوسيع ممتلكاتها حتى تشمل جميع شمال إفريقيا، وفعلا بدأت السواحل تسقط الواحدة تلو الأخرى، عندما احتلت اسبانيا المرسى الكبير سنة 1505 لإيجاد ميناء مناسب للسفن الاسبانية. [2]

وأمام التكالب المسيحي الاسباني، ظهرت القوة العثمانية ممثلة في الأخوة بربا روس، الذين أبلوا بلاء حسنا في رد العدوان، وتصدوا بقوة للهجمة الإسبانية، وكان الأمل يحدوهم إلى تحرير تلك السواحل، وإرجاعها للحاضرة الإسلامية، واعتبر سكان الجزائر، أن

---

1 - أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792**، دار البصائر، ط1، الجزائر، 2007، ص58-59.

2 - جون. وولف، **الجزائر وأوروبا 1500-1830**، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2005، ص25-26.

العثمانيين هم أولى الناس بهم لتحرير بلادهم، وإعانتهم على طرد المعتدين، لأن الرابطة الإسلامية تجمع بين الطرفين، وبدأت المراسلات العديدة من حاكم قسنطينة أبو بكر الحفصي، والعلماء والأعيان من أهل بجاية، واستنجدوا بالأخوين لتحرير بجاية، وكانت الموافقة والتنفيذ الفوري منذ 1512، ولكن بجاية استعصت عليهم.[1] فاتجهوا إلى تحرير جيجل سنة 1514، واتخذوها مركزا لعمارتهم الحربية. [2]

وقد أظهرت حركتهم الدفاعية، وجهادهم البحري، أن المستقبل لتحرير مدينة الجزائر. وخلال تلك الأحداث برزت المكانة التي يحتلها الخليفة العثماني في نفوس المسلمين، وخصوصا في بلاد المغرب الأوسط، فلا يرون غضاضة في الانتماء إليه، ويمكن الوقوف عند بعض المظاهر التي تضفي القداسة على هذا المنصب المرموق في حياة المسلمين:

**أ) التواصل بين الأخوين بربروس والخليفة العثماني:** إثر تحرير مدينة جيجل من الأسبان، والاستيلاء على النفائس والبضائع

1 - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص148.

2 - عبد الرحمن الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر، 1994، ج3، ص37.

الجنوية، أعدوا هدية فاخرة، وأرسلوها إلى السلطان سليم، أخذوها من نصيبهم الخاص من تلك الغنائم، وأخبروا السلطان عن الظروف التي تعيشها سواحل الشمال الإفريقي، وما يبذلانه من جهاد لتحرير المسلمين من الصليبية الإسبانية، التي تريد القضاء على الدين، وهم ـ حينئذ ـ في حاجة ماسة إلى الدعم المادي والمعنوي لمواصلة الجهاد. فتقبل السلطان هديتهم الرمزية، وقرر دعمهم في سبيل الإسلام، وأمدهم بهدية تشمل 14 سفينة، تحمل الرجال الأشداء من المقاتلين، وكميات من الأسلحة والعتاد الحربي، [1] وكانت البداية سنة 1514م.

**ب) استنجاد سكان مدينة الجزائر ونواحيها بالأتراك في جيجل:** لم يكن المجتمع الجزائري ـ في تلك الظروف الصعبة ـ يجد بصيص الأمل إلا في القوة التركية المتنامية، والتي أثبتت قدرتها على التصدي للعدو الإسباني، ويومها أرسل صاحب جبل كوكو الشيخ أحمد بن القاضي الزواوي مستنجدا بالأتراك المستقرين بجيجل، ومما ورد في رسالته: (إن بلادنا بقيت لك أو لأخيك أو للذئب). [2] كما أرسل سالم التومي من مدينة "جزائر بني مزغتة" وفدا من أعيان المدينة ـ إلى جيجل ـ يشكو ما لحق بالمدينة وما مسها من إرهاق إسباني، وأكد شيخ الجزائر على استعداده لمد العون للأتراك، إذا أنقذوا بلاده وحرروا حصن

1 - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص156-157.

2 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص15.

البنيون من الاحتلال الإسباني.[1] فاستجاب عروج للنداء، وجهز حملته التي فتحت مدينة الجزائر 1516، واجتمع أهل الحل والعقد في المدينة وبايعوه أميرا للجهاد، لتحرير بقية الوطن، ويعتبر هذا الانجاز، البداية الأولى لبناء" الدولة الجزائرية الحديثة"،[2] والتي شهدت تلك العلاقات الروحية مع الباب العالي، رمز الإسلام والمسلمين.

**ج) اقتراح خير الدين إلحاق الجزائر بالخلافة العثمانية:** كان خير الدين بربا روس في مدينة الجزائر، فبلغه خبر مقتل أخيه عروج في تلمسان، فعزم على ترك البلاد إلى إستانبول، على أمل الحصول على أسطول جديد يستعين به على مواصلة الجهاد في البحر، ولكن ذلك لم يتم، للاعتبارات التالية:

ـ الخوف من هجوم الإسبان على البلاد في غيبته، ولا يوجد من يتصدى لهم، ولاسيما أن الإسبان عادوا إلى وهران، ونصبوا "أبا حمو" على عرش تلمسان.[3]

ـ تأثر خير الدين بإلحاح أعيان مدينة الجزائر في البقاء، وهم شيوخ

---

1 - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص157.

2 - نفسه، ص158.

3 - صالح عباد، **الجزائر خلال العهد التركي 1514-1830**، دار هومة، ط2، الجزائر، 2007، ص49.

وزعماء القبائل ـ أهل الحل والعقد ـ الذين قرروا إسناد الإمارة لخير الدين خلفا لأخيه عروج، ليواصل الجهاد مكانه، والحوا عليه، ودعموا موقفهم برأي العلماء الذين قالوا له:" إن الله يوجب عليك البقاء في هذه المدينة الإسلامية لحمايتها، ولا يسمح لك الدين بتركها نهبة للمفترس" [1] فأجابهم بأنه بقي منفردا دون إخوته، " وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بني زيان، واستعانته علينا بغير أهل ملتنا حتى كفانا الله أمره، وصاحب تونس الحفصي لا أرى له في نصرتنا وإعانتنا، وأسلمنا للعدو بمنع البارود، لولا لطف الله".[2]

ـ قبول أعيان الجزائر اقتراح خير الدين في إلحاق الجزائر بالخلافة الإسلامية، أمام قلة الإمكانيات التي كانت في حوزة خير الدين، وتهديدات الأعداء وتكالب الإسبان؛ فيكون وضع اليد في السند القوي، والاتصال بالسلطان العثماني، ومما قاله: (فالرأي أن نصل أيدينا بالقوة الإسلامية ـ وهو السلطان سليم خان ـ ونعتمد عليه في حماية هذه المدينة، ولا يكون ذلك إلا ببيعته والدخول في طاعته، بالدعاء له في الخطب على المنابر، وضرب السكة باسمه، لنتفيأ ظل

---

1 - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص181.

2 - أحمد بن ابي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بإخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، الدار التونسية للنشر- تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر، 1977، ج2، 11.

حمايته".[1] وقد لقي هذا العرض قبولا من أعيان وكبراء مدينة الجزائر، وشرع خير الدين في تنفيذه على الفور.[2]

**د) الإلحاق النهائي للجزائر بالخلافة العثمانية:** نظم خير الدين وفدا جزائريا، تحت رئاسة الحاج حسين (كاهيته) وهو تركي بالمولد، ورفيق خير الدين، وحمله الهدايا الفاخرة، وأرسله إلى السلطان سليم، الذي كان مقيما بالقاهرة ـ بشكل مؤقت لتنظيم البلاد بعد سقوط دولة المماليك ـ فاستقبله بحفاوة، وقبل ولاء خير الدين، وأذن في ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية، وخلع على خير الدين لقب "بيلرباي" أي أمير الأمراء، وجعله حاكما على الجزائر، وسلمه قفطان التولية الرسمية، ودعمه بفرمان يقضي بدعم وحماية الجزائر من قبل الدولة العثمانية، ويسمح بتقديم الدعاء في الخطبة للسلطان على المنابر، وسك العملة باسم السلطان.[3] واعتبر خير الدين الرئيس الأعلى لكل البايات الذين سوف يتولون الحكم في الشمال الإفريقي.[4]

ومنذ 924هـ/ 1518م، صارت الجزائر ولاية ملحقة بالخلافة العثمانية، تدين للسلطان بالولاء، وصار ضرب العملة باسم السلطان

---

1 - المرجع السابق، ص11.

2 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص46.

3 - صالح عباد، المرجع السابق، ص49.

4 - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص182.

سليمان خان الأول بتاريخ 926هـ/1520م. [1]

"... فالحقيقة أن الوجود العثماني كان معتمدا من جهة على رجال القبائل الجزائرية، ومن جهة أخرى كان معتمدا على فكرة الجامعة الإسلامية التي تمثلها الخلافة العثمانية". [2]

إن العلاقة بين الطرفين كانت شرعية، ورغم الآراء التي تجعل من الأتراك مستعمرين، والخليفة قد اغتصب هذه الأرض، فهذا مخالف للصواب، " فالجزائر لم تكن دولة قائمة بذاتها (ذات سيادة) في القرن السادس عشر، حتى نقول إن العثمانيين اسقطوا تلك الدولة وحلوا محلها، ونصبوا أنفسهم مستعمرين أو محتلين".[3] كما أن عدد الأتراك، طيلة حكمهم، الذي دام أكثر من ثلاثمائة سنة، كان ضئيلا، " لم يتجاوز الثلاثة آلاف رجل في أي وقت من الأوقات إلا قليلا، وكان الأتراك جنودا يحمون مركز الدولة المستمد من سلطة الخليفة العثماني الشرعية".[4] وكان دور العثمانيين، هو تحريرها من

---

1 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص46.

2 - أحمد توفيق المدني، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار**، تحقيق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1980، المقدمة، ص8

3 - أبو القاسم سعد الله: **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ج4، ص188.

4 - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، المقدمة ص07.

الاستعمار الصليبي الإسباني، " والاحتفاظ بالجزائر خاصة في دائرة الحضارة الإسلامية التي تمثلها الدولة العثمانية. [1]

**3) مكانة السلطان في حياة الجزائريين خلال العهد العثماني:**

ويذكر بعض الكتّاب العلاقة السيئة لدى أفراد المجتمع الجزائري، ورفضهم للأتراك، وهذا دفعهم للقيام بثورات وانتفاضات عديدة، بسبب سياسة التهميش، وسوء المعاملة،[2] ولكن ذلك أمر طبيعي في كل الأنظمة، ولا يمس مقام الخلافة، والدليل عليه:

ـ كانت وفود العلماء، والأعيان تشد الرحال إلى إستانبول، تطلب من السلطان التدخل، لكونه صاحب الشأن الأخير، والأمر النهائي، من أجل إصلاح وضع سيئ أو تغيير حاكم. [3]

ـ الفرح في الأيالة، بكل خبر يأتي من دار الخلافة، مثلما وقع سنة 1175، عندما ولد للخليفة السلطان مصطفى خان الثالث، ولدا سماه " سليم"، (هو السلطان سليم الثالث فيما بعد) وعد ذلك نصرا للإسلام ولاسيما أن الولد تخلف في هذه الأسرة الحاكمة، حتى وقع الإرجاف بانقطاع نسلهم، قال الشريف الزهار" وقد استبشر الإسلام بذلك،

---

1 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج4، ص188.

2 - حنيفي هلايلي، **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، دار الهدى، ط1، عين مليلة ـ الجزائر، 2008، ص09-27.

3 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج3، صص 204-206.

وبعثت البشائر لجميع البلدان".[1] وكذلك عند ولادة عبد المجيد (أصبح سلطانا سنة 1839)، " وفي هذه السنة 1240 قدم قبجي باشي، من الحضرة العلية ببشارة ولادة السلطان عبد المجيد، فانزلوا القبجي باشي. ومن الغد قرئ مكتوب بشارة السلطان. ففرح جميع المسلمين ودعوا للسلطان بالنصر والتأييد وللوليد الجديد بطول العمر وأن يكون خليفة لأبيه من بعده. وضربت المدافع سبعة أيام صباحا ومساءا، وكتب الأمير البشارة للبايات ولجميع العمال".[2] وأرسل السلطان محمود قبجي باشا سنة 41، ببشارة ابنة ولدت للسلطان، ووقع نفس المهرجان، واتبعت نفس مراسيم الفرح في كامل البلاد. [3]

ـ كانت السكة تضرب في الجزائر، وتحتفظ باسم السلطان (الخليفة) فعلى سبيل المثال ريال بوجو به العبارات التالية:( سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان محمود خان عز نصره ). وعلى الوجه الثاني للعملة:(ضرب في الجزائر1241). [4]

---

1 - مذكرات الشريف الزهار، صص 15-19.

2 - مذكرات الشريف الزهار، ص145.

3 - مذكرات الشريف الزهار، ص158.

4 - ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1985، ص191.

ـ إرسال القاضي الحنفي من إستانبول، ويختار من طرف دائرة القضاء باستامبول، وقد تطول مدة ولايته إلى عهد خليفتين، مثلما هو حال القاضي محمد بن عبد الرحمان (دام مدة عشرين سنة) امتد جزءا منها في عهد السلطان مصطفى الرابع، وأوائل محمود الثاني.) [1]

ـ الدعاء للسلطان في خطبة الجمعة، على مستوى الأيالة. [2]

**4) علاقة الجزائر بالخلافة أثناء فترة الاحتلال:**

كان دعاة الجامعة الإسلامية ينطلقون من الإصلاح الديني والاجتماعي، والرجوع إلى الإسلام على منهج السلف الصالح، وهي فكرة قديمة في الجزائر، وظهرت منذ أول يوم للمواجهة مع الاحتلال، لأن الجزائر عرفت نكسة كبرى، باحتلالها، وعرفت الجماهير الشعبية، قيمة الحكم تحت الراية الإسلامية، ويعتبر حمدان بن عثمان خوجة أول جزائري يتحدى الأوروبيين مؤكدا على الإسلام كمعلم حضاري لا يتعارض مع القيم الحضارية الأوروبية، ولعب دورا هاما في باريس وإستانبول من أجل القضية الجزائرية، وعد في نظر السلطات العثمانية، الأقدر على فهم سلوك المقاومين ولاسيما الأمير عبد القادر،

1 - مذكرات الشريف الزهار، ص99.

2 - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998، ج1، ص396.

والحاج أحمد باي، ومثل عامل الاتصال بهما، وكان يشارك في اجتماعات الصدر الأعظم ويدلي برأيه فيما يخص الجزائر.[1]

وبقي النبض الشعبي موصولا بالسلطان، فهو رمز المسلمين، وأملهم في إنقاذ بلادهم من الكفار الغاصبين، ولاسيما من المقاومين على اختلاف وسائلهم، فالحاج أحمد باي ظل وفيا للسلطان، وكان يراسله ويخبره، بما صنع، ويطلعه على إغراءات الفرنسيين، وافتراءات الباي التونسي، فثبته السلطان، وشد على يده، وطلب منه مواصلة الدفاع عن قسنطينة، وعدم إبرام أي اتفاق إلا بعد مشاورته، ورغم الارتباط الكبير بالشعب الجزائري، لم يفكر أحمد باي في إعلان الاستقلال وتوحيد البلاد تحت شعار الوطنية، بل بقي وفيا للخلافة والسلطان. [2]ولهذا كان السلطان يفكر في تعيينه واليا على الجزائر إذا نجحت مساعيه في استرجاع البلاد. [3]

---

1 - عبد الجليل التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي الجزائر وتونس وليبيا1816-1871**، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر، منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان 1985، ص48.

2 - أبو القاسم سعد الله : **الحركة الوطنية الجزائرية**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992، ج1، 136-140. يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، دار البعث، ط1، قسنطينة-الجزائر، 1980، ص38.

3 - عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص45.

أما الأمير عبد القادر، فقد أثبت مقدرة على تبني الفكر الإسلامي في مرحلة الجهاد والمقاومة، وبعد نفيه إلى المشرق العربي، تبنى مهمة طرد الفرنسيين، وإقامة دولة عربية إسلامية في الجزائر، ولم يعلق الأمل على السلطان في بادئ الأمر، ولكن تطور الظروف، دفعت به إلى الاتصال بالسلطان بعد 1840، وبتشجيع وسعي من حمدان خوجة، وكذلك رسائله المتبادلة مع السلطان، وفي رسالة الأمير الطويلة للسلطان عبد المجيد، وصفه بخليفة وحامي المسلمين، وعليه يتوقف نجاح مستقبلهم. [1]

والأمير عبد القادر، رغم ما وقع من جفاء من عائلته للسلطة العثمانية قبل الاحتلال، وموقفه من السلطة في العقد الأول من الاحتلال، إلا أنه عبر عن ولائه للسلطان، في مرحلة الأسر، عندما أقام سنوات بالدولة العلية، والتي أثنى عليها صاحب تحفة الزائر، باعتبارها كعبة الوفود الإسلامية التي عرفت للخلافة قداستها، وذكر ما لاقاه الأمير عبد القادر من ترحيب وعناية (فتشرف بمشاهدة حضرة السلطان الغازي عبد المجيد خان فرحب به وأحسن السؤال عن أحواله وشكره على ما كابده في الدفاع عن الدين والوطن، وحمده

1 - المرجع السابق، ص50.

على صبره على ما قاساه أيام إقامته عند الفرنسيين). [1]

وسجل الأمير قصائد في مدح السلطان عبد المجيد، وكيف ذاق طعم الأمان في كنف الحضرة العلية، والتي تفوق الأمان الذي عاشه حمام مكة في الحرم:

وعش هنيئا فأنت اليوم آمن من * حمام مكة إحراما وإحلالا
فأنت تحت لواء المجد مغتبط * في حضرة جمعت قطبا وإبدالا

واثني على منصب الخلافة، وبين القداسة التي نمت وترعرعت في نفوس المسلمين، وعامة الجزائريين، ومثل السلطان كنفها وحامي المسلمين، فقال:

أبشر بقرب أمير المؤمنين ومن * قد أكمل الله فيه الدين إكمالا
عبد المجيد حوى مجدا وعزا علا * وجل قدرا كما قد عم أنوالا
كهف الخلافة كافيها وكافلها * من لا عهدنا له في القرن أمثالا
يا رب فاشدد على الأعداء وطأته * واحم حماه وزده منك إجلالا

ويشير إلى الجزائر وغيرها من البلاد الإسلامية، وهي تهفوا لكنف الخلافة:

فالمسلمون بأرض العرب شاخصة * أبصارهم نحوه يرجون إقبالا[2]

---

1 - محمد بن الأمير عبد القادر: **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر**، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903، ج2، ص ص 50-51.

2 - محمد بن الأمير عبد القادر، نفسه، ص52.

وعاش الأمير أحسن الأيام في إقامته في بروسة، ووصف صاحب التحفة العناية التي لقيها والسرور الذي عمه، والوفود التي زارته، ومواصلته مدح السلطان عندما قامت حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية، فقال الأمير مستغيثا ومادحا:

يـا رب أيـد بـروح القـدس ملجأنا * عـبد المجيد ولا تبقـيه حيـرانا

ابن الخلائف وابن الأكرمين ومن * توارثوا الملك سلطانا وسلطانا[1]

ويذكر تشرشل، أن الأمير ذاق ذرعا بإقامته في الدولة العلية، واختار دمشق مقام له،[2]ولكن صاحب التحفة رد ذلك لكثرة الزلازل التي مست بروسة، فاختار الهجرة إلى دمشق الفيحاء،[3] وبقى الأمير على ولائه للسلطان، وزار السلطان عبد العزيز في الأستانة 22 نيسان 1865. [4]

ورغم التضييق الذي عرفته الحركة الوطنية الجزائرية في القرن التاسع عشر، فقد عبر الجزائريون عن روحهم الدينية، عن طريق الأدب الشعبي، والجمعيات الدينية، والطرق الصوفية، واندمجوا في

---

1 - محمد بن الأمير عبد القادر، نفسه، ص54.

2 - شارل هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، الدار التونسية للنشر- تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر، 1974، ص ص 247-282.

3 - محمد بن الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص63.

4 - محمد بن الأمير عبد القادر، المرجع السابق ، ص153.

الدعوة للجامعة الإسلامية، وكان لحرب القرم أصداءها في الجزائر، فافتخر الجزائريون بالسلطان، " وانشدوا المدائح لله، ولخليفة إسطنبول، حامي الإسلام" وهذه تمثل أصل الجامعة الإسلامية في الجزائر. [1]

وعندما احتدت المعركة، وظهرت نوايا الكماليين لإلغاء الخلافة، واستمرت الصحافة الجزائرية أكثر من عشر سنين في متابعتها، وأبدى الكتّاب مدى تعلق الجزائريين بالخلافة الإسلامية، واعتبروها رمزا غاليا لتضامن المسلمين وربطهم بحبال الأخوة، لأن الخليفة " ليس الرئيس الديني للأتراك وحدهم، بل لكافة المسلمين". [2]

وكانت طائفة الكتّاب الأولى، من ذوي النزعة الإسلامية من أمثال " ابن الهاشمي" و"ابن باديس" و"الميلي" الذين فسروا قضية الخلافة تفسيرا دينيا، وأبرزهم عبد الحفيظ بن الهاشمي، مدير جريدة النجاح، الذي كان من أكثر الكتّاب عناية بالخلافة، ورفع قلمه بعد إلغاء الخلافة سنة 1924، وصب جام غضبه على الأنكليز المتآمرين، والكماليين المنفذين لذلك الإلغاء. [3]

---

1 - أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992، ج2، صص37-39.

2 - محمد ناصر، **المقالة الصحفية الجزائرية نشأتها. تطورها. أعلامها من1903 إلى 1931**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر، 1978، مج1، ص178.

3 - محمد ناصر، ج1، ص179.

وكتب ابن باديس عن الخلافة، ووجه نقدا للكماليين، واعتبرهم مارقين عن الدين، ولكنه بعد توالي انعقاد المؤتمرات، حول الخلافة، ومنها مؤتمر القاهرة (ماي 1926، ومؤتمر مكة (جوان 1926) ومؤتمر القدس (1931)، وصارت لعبة في أيدي الأنكليز، والهوى لدى حكام العرب، وحينئذ نفض المصلحون الجزائريون أيديهم منها، وحدث تحول خطير. وكان ابن باديس يرفض كل خليفة تشم منه رائحة الأجنبي، كالشريف حسين، وموقفه يتغير فيطالب بالتضامن الروحي حول القرآن الكريم. [1] أما موقف ابن باديس من أتاتورك، والثناء عليه، فيدخل في نطاق حماية آخر نفس في تركيا الجريحة، وأما مبرراته لمصطفى كمال في حربه على الشيوخ لأنهم لم يحابوا الاستعمار الانكليزي، وأنه ثار على الخلافة الزائفة فألغاها، ولم يثر على الإسلام، وإنما على المسلمين الذين استكانوا للظلم. وفرق بين ابن باديس العالم وبين عموم الناس في قدسية الخليفة على الإطلاق، فهو يفرق بين المواقف والأحوال، وقد كتب في البصائر في ماي 1938، تحت عنوان " الخلافة أم جماعة المسلمين: (إن الأمم الكاثوليكية ـ مثلا ـ على اختلاف أوضاعها السياسية وتباين مشاربها وأنظارها فيها، ترجع في ناحيتها الأدبية والدينية إلى مركز أعلى هو بابا روما، المقدس

1 - محمد ناصر، ج1، ص ص 180-181.

الشخص والقول في نظر جميعهم.) ثم يعرض المسألة عند علماء الإسلام الذين يقدمون العقل والنقل على العاطفة والمواقف السياسية. (نعم ليس لنا ـ والحمد لله ـ في الإسلام بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم شخص مقدس الذات والقول، تدعى له العصمة، ويعتبر قوله تنزيلا من حكيم حميد، ولكن لنا جماعة المسلمين وهو أهل العلم والخبرة الذين ينظرون في مصالح المسلمين من الناحية الدينية والأدبية، ويصدرون عن تشاور ما فيه خير وصلاح. فعلى الأمم الإسلامية جمعاء أن تسعى لتكون هذه الجماعة من أنفسها، بعيدة كل البعد عن السياسة وتدخل الحكومات، لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها) ورأى المتاجرة بمنصب الخلافة، وأنكر ذلك على شيخ الأزهر الشريف. (لقد كنت كاتبت صاحب الفضيلة شيخ الأزهر الشريف بهذا المعنى، ولكني لم أتلق منه جوابا، وعرفت السبب يوم بلغنا أن إخواننا الأزهريين هتفوا ـ يوما ـ بالخلافة لملك مصر فاروق الأول. وسيرى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر، أن خيال الخلافة لن يتحقق، وان المسلمين سينتهون يوما ما ـ إن شاء الله ـ إلى هذا الرأي).[1]

1 - أنظر : **الشهاب**، عدد ماي 1938، نقلا عن آثار عبد الحميد بن باديس، دار البعث، ط1، قسنطينة، 1991، ج5، ص ص 383-384.

بينما نظرت جماعة النخبة لسقوط الخلافة، نظرة سياسية محضة، ورأوها نتيجة حتمية لسياسة الخذلان من الدول العربية الإسلامية مع الدولة العثمانية، ومثل هذا الرأي "ابن التهاميّ و" جلول شمس الدين" من المتفرنسين، وأبدوا إعجابا بما أدخله الكماليون على الأحوال الشخصية، ومن أجل التحرر والتقدم. [1]

**5) موقف الاستعمار الفرنسي من الخلافة وأنصارها في الجزائر:**

كانت السلطات الفرنسية ترى في حركة الجامعة الإسلامية، خطرا بارزا لا بد من التصدي لأدنى ملامحه التي توحي إلى الانتماء السياسي والروحي، وتجسد رد الفعل على الدعاية إلى الفكرة السابقة، في المواقف التالية:

ـ فلو أخذنا منطقة وادي سوف في الجنوب الشرقي الجزائري كنموذج لهذا الاهتمام من السكان، وردود الفعل الفرنسية، فالمنطقة ـ في بداية القرن العشرين ـ كانت محافظة على ولائها للسلطان العثماني، وتعبر عن ذلك بالدعاء له في صلاة الجمعة في كل زواياها ومساجدها، ما عدا زاوية سي محمد العروسي بقمار، لأن العلاقة كانت سيئة بين التجانيين والدولة العثمانية، لأن الأتراك في الجزائر كانوا سببا في خروج الشيخ أحمد التجاني من الجزائر إلى فاس، إثر التضييق التركي.

1 - محمد ناصر، المرجع السابق، ج1، صص 182-184.

فكانت السلطات الفرنسية ترصد ذلك، ويتطلب منها الحذر الشديد، لأن الدعاء يحمل معاني الولاء، ولو صدر ذلك السلوك من أتباع الإدارة، وأعوان السلطة المحلية. [1]

فقد منعت النشاطات الاحتفالية الدينية المهرجانية البارزة في الشوارع، مثلما وقع في عهد القايد مصرلي عبد العزيز، فعند تعيينه على عرش المصاعبة في 1919، وبمناسبة المولد النبوي الشريف، طلب من رجال العلم في مسجد سيدي المسعود بالوادي، وبعد قراءة المولد صباحا في المسجد المذكور، أن يكملوا إنشاد بقية القصائد في بيته، ويختموها بطعام الغداء. وتم الأمر كما خطط له، وتوجه جمعهم تحت إشراف القايد والأئمة، على أنغام الدفوف، وأصوات المدائح الدينية، وقصيدة البردة، في موكب روحي متميز، قطع الشارع من المسجد إلى بيت القايد، ولما بلغ الأمر إلى مسامع الحاكم العسكري لملحقة الوادي، توجه باللوم والعتاب للأئمة والقايد مصرلي، بقوله: "إن عهد الخلافة قد انتهى، ولا ينبغي أن يتكرر هذا مرة أخرى". وسبب معارضته لهذا السلوك العابر، أنه رأى في تلك المراسيم الدينية موقفا سياسيا ينذر بالخطر، ولا بد من إيقافه حتى لا يستشري أمره ويؤثر على وجودهم في المنطقة؛ وبادرت السلطات بالتصدي للمظاهر الطرقية المشتبهة ـ عندهم ـ فأمرت بنزع الأعلام الخضراء التي تزين

---

1 - D. D. M. E: Classe Dirigeante de l'Annexe d'El-oued- S. D.

ضريح الولي الصالح سيدي أحمد الغرايسة بمدينة الوادي، بإشارة من الأب المسيحي (كريبس) لأنه لا ينبغي أن يرفع إلا العلم الفرنسي.[1]

وتم توظيف رجال الطرق الصوفية في الجزائر، ومنها وادي سوف للوقوف مع الثورة العربية، ومساندتها معنويا ضد الأتراك، والتي توجت بإعلان الشريف حسين، الثورة العربية الكبرى ضد الدولة العثمانية يوم 10 جوان 1916، ويومها أصدر المنشور الأول للثورة يوم 26 جوان، ووزع في المشرق، وحرصت بريطانيا على نشره ـ ضمن نطاق واسع ـ في شمال إفريقيا، بالتنسيق مع فرنسا، وتم توزيعه على شيوخ الطرق الصوفية المؤثرة على الحياة السياسية بوادي سوف، وخصوصا الشيخ الهاشمي الشريف، من أجل القضاء على العاطفة التي تكنها الطريقة للدولة العثمانية، وقطع الطريق على المقاومة الليبية الموالية للسلطة العثمانية القديمة بطرابلس الغرب، [2] وكذلك محمد العروسي شيخ التجانية بقمار، واستغلت العلاقة السيئة لهم مع الأتراك بسبب المضايقات التي تعرض لها الشيخ أحمد التجاني في الجزائر ـ مما دفعه إلى الاستقرار بفاس ـ وتم توظيف ذلك الجفاء لخدمة أغراض الاستعمار في قطع الطريق على المقاومة الليبية.

---

1 - لقاء مع أحمد خراز ببيته بالوادي يوم الجمعة 2005/06/03.

2 - أنظر: رسالة رئيس مركز تطاوين إلى المقيم العام الفرنسي بتونس، 5 جويلية 1915، وما ورد في الوثائق الفرنسية، (DHF) 2ème Série. N:18. p60.

وتضمن المنشور نقدا لاذعا للعثمانيين وسلوكهم المخالف للإسلام في بلاد الحجاز، والاعتداء على الحرم المكي وتدنيسه، وضربه بالقنابل، فضلا عن الظلم المتكرر في حق العلماء والأعيان، ونصب المشانق، وإصدار قوانين تخالف الشريعة الإسلامية،[1] (وسبب اختيار الشريف حسين، والحرص على توزيع منشور ثورته، لتحقيق عدة أهداف تخدم السياسة الفرنسية في الجزائر، وأبرزها إضعاف الدعوة إلى الجامعة الإسلامية التي هزت مشاعر الجزائريين بعد الاحتلال الايطـالي لليبيا سنة 1911، وأظهرت المقاومة الليبية المسلحة تعاطفا شعبيا معها. [2]

وعملت على كسب ود القوى الإسلامية الجزائرية، ومنهم رجال الطرق الصوفية المؤثرة والأعيان، من أجل تدجينهم لخدمة الأهداف الاستعمارية بطريقة غير مباشرة، وحتى يستخلصوا العبرة من سيطرة الشريف حسين على مكة، وقد أرسل حاكم ملحقة الوادي في يوم 20 جويلية 1916 إلى الشيخ الهاشمي الشريف يخبره بسقوط قلعة الأتراك في مكة يوم 9 جويلية بعد الاستسلام، والتسليم التركي التام

1 - سليمان موسى، "المنشور الأول للثورة العربية الكبرى وتوزيعه في شمال افريقيا "، **المجلة التاريخية المغربية**، العدد 87، تونس، جانفي 1977، ص ص106-111.

2 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ص116.

للشريف حسين،[1] وهو خبر يحمل التحذير للشيخ الهاشمي، والرغبة في نشر الخبر على نطاق واسع بين أتباع الطريقة القادرية، لأن البلاغات التركية ظلت تصدر منكرة قيام أي ثورة في بلاد الحجاز.[2]

ولم تطمئن السلطات الفرنسية لأعمال الشيخ الهاشمي، فعاقبته بعد هدة عميش بالنفي تأديبا له، ولتجعله عبرة، وتخفف من حدة الروح الدينية التي عرفت بها الطريقة القادرية.

ورغم سقوط الخلافة نهائيا في 1924، والحذر المتواصل من السلطات الفرنسية، إلا أن فكرتها بقيت في أذهان السكان، ومثلت المبادئ القريبة من الحركة الوطنية، وعبر عنها الشاعر الشعبي الهادي جاب الله في الأربعينيات بقوله:

شعب الجزائر يتعافى.. من الخرافـة.. والتفريق اللي فَ اطرافه
يتجمع ويضم أكنافه.. هذي أوصافه.. تحيا جمعيـة الكشافـة
تحيا الجمعية الوطنية.. والخيريـة.. والناس اللي يحبُّوا الحرية
تحيا اللغة العربيـة.. بالثقافـة.. ويتجدد عهد الخلافة[3]

---

1 - أنظر: نسخة من الرسالة عليها ختم الزاوية القادرية بالرويسات، وهي منشورة ضمن كتاب رسالة الطريقة القادرية، المرجع السابق، ص74.

2 - جورج انطونيوس: **يقظة العرب**، تر، ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، ط5، بيروت، 1978، ص297.

3 - شاعر شعبي ولد بالوادي عام 1882، وكان فلاحا، وبدايته صوفية، وانتمى إلى جمعية العلماء، أنظر: أحمد زغب: "صدى الحركة الإصلاحية بوادي سوف"، **مجلة القباب**،

**ـ الخلاصة:**

لقد عرف منصب الخلافة قدسية ومهابة لدى المجتمع الجزائري، منذ انضواء البلاد تحت المظلة العثمانية، واستمر إلى فترة النضال ضد الاستعمار الفرنسي، وكانت الخلافة رصيدا في المواجهة وحبلا يربط الشعب بالانتماء الإسلامي، ويُمكن الوقوف عند بعض القضايا الهامة التي كشفها هذا الموضوع في الفترة الممتدة بين 1518- 1962:

ـ تأثر الموقف الشعبي، بالشرعية الدينية، باعتبار الخلافة في منظور الشريعة هي الحفاظ على الإسلام، وهي المؤهلة لإقامة الدين، وتنفيذ أحكامه عمليا في واقع الناس، والسهر على تطبيق الأحكام الشرعية، وسياسة شؤون الدولة كما رسمها الإسلام، وهذا جعل الشعوب الإسلامية ترتبط بها، ودفع الجزائريين، من القادة، أو عامة الناس إلى القبول بالانضواء تحت راية الخلافة، لأنها القوة الوحيدة ـ يومئذ ـ للدفاع عن البلاد، ورد التحرشات الإسبانية، وتطهير السواحل من بؤر الاحتلال الصليبي.

ـ ظل الارتباط بالخلافة ـ طوال التواجد التركي في الجزائر العثمانية ـ جليا في العديد من المظاهر والمراسيم، التي ترعاها السلطات الحاكمة

---

دار الثقافة بالوادي، العدد 01، جوان 2004، ص26. أحمد زغب: **الشعر الشعبي الجزائري من الإصلاح إلى الثورة (الهادي جاب الله نموذجا 1882-1978)**، مطبعة مزوار، ط1، الوادي-الجزائر، 2009، ص67.

من جهة، ويتفاعل معها الشعب من جهة ثانية، وهي تدل على الولاء التام للسلطان، ونلمسه عند العلماء والأعيان في شد الرحال إلى الباب العالي عند كل نازلة أو ملمة، تحتاج إلى التدخل السريع من سدة الحكم العلية في الآستانة، كما تقام الأفراح في أرجاء الأيالة، مشاركة للسلطان عند إنجابه الأولاد والبنات، أو تكلل حروبه بالنصر على الأعداء، كما أن السكة والنقود تضرب باسمه، وتنوه بمكانته، وتعطيه قدسية يومية، ما دامت العملة متداولة بين أفراد الرعية، ويدعم ذلك الدعاء الذي يدعو به الخطباء في الجُمع والأعياد والمناسبات، ويؤمنون على النصر والتمكين.

ـ إن سقوط الجزائر في يد الفرنسيين، وانتهاء الحكم التركي، لم يقطع الصلة الروحية بالباب العالي، واستمرت محاولات الاستفادة من السلطان، لمقاومة المحتل، واسترجاع الأيالة، واعتبره المقاومون رمزا، سواء عند أحمد باي، أو الأمير عبد القادر، ولاسيما بعد الأسر والنفي، والإقامة في الآستانة، وظل مواليا للسلطان، ودبج قصائد في مدحه والثناء عليه، والتنويه بعظم انتصاراته، وجعل من السلطان عبد المجيد، كهف الخلافة، وكافيها وكافلها، وهو مميز عن باقي الحكام والسلاطين.

ـ أما النخب الإسلامية، فانطلقت من الموقف السياسي، ودافعت عن منصب الخلافة المهدد من الكماليين والأنكليز، ومن ورائهم

اليهود، وخصوصا بعد إلغاء الخلافة، وحينئذ ظهر النشاط من خلال الجامعة الإسلامية، التي استمر أصحابها في نصرة الخلافة، وتبلور ـ في الصحافة ـ رأي مخالف، أو متجدد، مثله ابن باديس سنة 1938، حين مدح أتاتورك، وحين صارت الخلافة ألعوبة في يد الأنكليز، وفي هوى بعض الحكام، مثل الملك فاروق، والشريف حسين الذين سعوا ـ بتشجيع ودفع من الاستعمار ـ لتولي هذا المنصب، وحينئذ، رأى ابن باديس، أن يكون التضامن الروحي حول القرآن، وأن القدسية لا تكون لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأن الخلافة صار يتاجر بها، وأثنى على مصطفى كمال، لأنه حافظ على البقية الباقية من الدولة التركية، وعلى تماسكها، ولم يكن ينصره لأنه حارب بعض المظاهر الإسلامية ـ بل ينكرها عليه ـ لأن ابن باديس، رآه أحسن من غيره من الحكام الذين يتشدقون بالإسلام، ويضربونه في الخفاء، ولم تكن النخبة الفرنسية ـ في الجزائر ـ أبعد عن هذا الطرح.

ـ إن الاستعمار الفرنسي بقي متوجسا خيفة من أي نشاط وحدوي إسلامي، ولو كان تحت رعاية الطرق الصوفية، أو حتى المظاهر الدينية التي تجنح إلى الفلكلور والمهرجانية، لأنه يراها رصيدا روحيا، يمكنه أن يتحول إلى نشاط مفعم بالوعي الحركي، ويكفيه حمل عنصر الهوية، وفي داخله رفض للسياسة الاستعمارية، وربما يطفو

على السطح عامل المقاومة الشعبية، حين تتوفر شروطها وأسبابها الموضوعية.

ولكن الخلافة ـ رغم كل الكيد الاستعماري ـ ظلت راسخة الجذور في قلوب الجزائريين، ويرى الشاعر الشعبي ـ المعبر الرسمي عن الصوت الشعبي ـ أن الحركة الوطنية، والمحافظة على الثوابت (اللغة العربية ومبادئ الإسلام) في نفوس الجزائريين، هو السبيل الأمثل إلى التحرر والانعتاق من العبودية، ويؤول إلى أسمى غاية لديهم، وهي تجدد عهد الخلافة الإسلامية.

وخلاصة الموضوع، أن الخلافة ـ في عرف الجزائريين ـ ولو كانت شبحا باهتا، فهي الهيكل الذي يحمي الإسلام، ويجعله فاعلا في حياة الناس.

## الشخصية الجزائرية في العهد العثماني
## من خلال كتابات الدكتور أبو القاسم سعد الله

تمهيد:

تتشكل الشخصية الخاصة بكل قوم من خلال المبادئ والقيم التي تنمو وتتكامل، وتتجمع في الأفراد، والجماعات المكونة لكيانها السياسي والاجتماعي والثقافي، والذي ينصهر في بوتقة واحدة للأمة وشعوبها، وهذا ديدن الأمة الإسلامية التي وحدها الإسلام، وظللتها اللغة العربية لكونها لغة القرآن، وربط بينها رباط القومية، والتاريخ المشترك للفتوحات، والحضارة العريقة التي مجدتها، وجعلتها رمزا بين الأمم ذات السيادة والريادة.

إن الشخصية الوطنية للجزائر، نمت منذ عهد الرسالة، في بعدها الحضاري العربي الإسلامي، وتعتبر الفترة العثمانية امتدادا لعهد الجذور الأصيلة للمجتمع الجزائري منذ الفتح المبارك. والحكم العثماني للجزائر أولاه الدكتور أبو القاسم سعد الله عناية فاحصة، ودراسة ثاقبة، وتمعن في طيات تاريخهم ووجودهم الشرعي، فألفاه مفخرة وسؤددا للجزائر وسائر المنطقة المغاربية، وأبرز من خلال كتاباته الوجه الحقيقي للشخصية الوطنية الجزائرية، وتتبعت تلك الكتابات التي أثمرت هذه الدراسة الأولية.

والأهداف المتوخاة لهذه الدراسة في نطاق الهوية والأصالة، تكمن

في عدة دوافع، أهما:

-كشف الهجمة التي قادها القوميون العرب من العلمانيين والمسيحيين المشارقة، الذي اعتبروا الوجود العثماني عندهم استعمارا وتخلفا وجمودا.

-التعرف على أفكار المستشرقين الذين روجوا لفكرة أطلقوا عليها (الاستعمار التركي) في البلدان المغاربية.

-الرد على المدرسة التاريخية الفرنسية، التي تبحث عن كل الثغرات الخفية عند الجزائريين لتضرب شخصيتهم في الصميم، وتعتبر كل أشكال التعاون الإسلامي بين أبناء الأمة الواحدة تدخلا في الشؤون الشخصية، وفرض الهيمنة الاستعمارية.

-التهجم المعاصر على تركيا الحديثة، وخصوصا من الفرنسيين الذين يدخلون من الجانب العاطفي، ويعتبرون الغرب وأوروبا الوريث الحقيقي للجزائر، بينما الفتح العربي الإسلامي، والحكم العثماني للمنطقة، هو مجرد احتلال واعتداء، ومجيئ الفرنسيين هو انقاذ وارجاع الأمور إلى نصابها. وإن تصريحات الرئيس الفرنسي ايمانويل ماكرون في أكتوبر 2021، الصادمة، والتي نشرتها جريدة لوموند الفرنسية، والتي شكك في الأمة الجزائرية، فقال: (هل كانت هناك أمة جزائرية قبل الاستعمار الفرنسي؟). وذكر بأن هناك استعمار سبق الوجود الفرنسي في الجزائر، وهو الوجود التركي، الذي نجحت تركيا في محو آثار

الهيمنة التي مارستها. وكلها أساليب التشكيك وبث الفرقة، ومهاجمة تركيا. التي تمثل أحد عناصر الهوية الإسلامية في الوقت الراهن، وتقوم بالدور الريادي الذي لازمها منذ قرون.

-بث الوعي في الأوساط الجزائرية التي انطلت عليها الأفكار المعادية لتركيا، وللدولة العثمانية التي تحاسب على أداء بعض سلطاتها في حوادث معينة، وهو أمر طبيعي لا يمس الشخصية، ولم تفرط في القيم والمبادي التي صانتها إلى آخر لحظة من وجود رجالها في الجزائر، وفضلوا الموت أو النفي عن الخيانة والارتداد أو الارتماء في أحضان العدو الذي أخذ منهم أرواحهم وأملاكهم.

**1-التاريخ العثماني في الجزائر جزء من تاريخ حضارة متكاملة:**

(ذلك أن تاريخ حضارة ما يمثل الوحدة والاستمرارية عندها، وليس هناك قديم ووسيط وحديث في التاريخ إلا عند المتعلمين) وفي أوروبا اعتبروا (وخصوصا بونسن) أن العصر الحديث (يبتدئ من هجرة إبراهيم الخليل – عليه السلام -... فلما لا نقول مثلهم: إن عصورنا الحديثة ابتدأت ببعثة الرسول الأعظم وإن عهد المأمون أقرب إلينا من عهد الداي حسين وحتى عهد شارل ديغول). [1]

1 - أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1990، ج3، ص13.

**2-إشكالية الوجود العثماني في الجزائر:**

يسود جدل كبير في الأوساط الفكرية في العالم العربي حول الوجود العثماني الذي حكم قرونا، وترك أثرا بارزا في الحياة العربية في المشرق والمغرب، والجدل أن سكان المشرق اعتبروه احتلالا وتسلطا وساهم في التخلف والجمود، وقاد هذا العلمانيون والنصارى الذين لهم خلفية ضد المسلمين عموما، ووجدوا فرصتهم السانحة في ضعف الأداء عند السلطات التي حكمت باسم الدولة العثمانية ووقعت في أخطاء سياسية فادحة، ضخمت إلى درجة إخفاء كل مواطن القوة التي تمتع بها العثمانيون في مواجهة أعداء المسلمين في عصرهم، وتأثر سعد الله بالمدرسة التاريخية في المشرق، وحمل فكرة أن الوجود العثماني عموما هو احتلال، ولكن تلاميذه في الجزائر ناقشوه، ومنهم محمد العربي الزبيري، ووصل الأمر إلى المناظرة، واستطاعوا إعادته إلى جادة الصواب، وعرف أن الوجود العثماني في الجزائر وبلاد المغرب الإسلامي، كان إنقاذا للمنطقة من الاحتلال، وجهادا يُشكر عليه الوافدون الذي ربطتهم بالسكان أواصر الدين والعقيدة السمحاء.

وتولت المدرسة الفرنسية كتابة التاريخ، واعتبرت أن الوجود العثماني هو احتلال، والوجود الفرنسي هو تحرير وفتح ونشر للحضارة، وسربت هذه الفكرة إلى النخبة الجزائرية التي رضعت من لبان المستعمر، وتناغمت مع طرحه المقصود. وتنبه سعد الله إلى هذا

الجدل، وعرف الأبعاد التي يروجها الذين يعادون الفكرة الإسلامية، وأراد توجيه التفكير حول التخلف السياسي للأمة، فهو أولى بالطرح، وكتب سنة 1986: (وما زلنا إلى الآن نتناقش حول ما إذا كان بنو عثمان قد احتلونا أو أنقذونا، دون أن نتناقش في جوهر القضية وهو أن التخلف السياسي هو الذي قضى على قوة الخلافة الإسلامية في المشرق، وشجع الانفصال في المغرب، وأن ضعف الخلافة والانفصال هما اللذان أطمعا بني عثمان في المشرق وبني الأصفر (الاسبان) في المغرب. ولو بقيت الخلافة واحدة قوية، ولو بقينا نحن متحدين مع الخلافة أقوياء في أنفسهم (كذا) لما هجم علينا التخلف السياسي الذي كان وراء الكارثة المشتركة). [1]

والمدرسة الغربية عموما تعتبر الوجود العثماني احتلالا وغزوا، فالكاتب الأمريكي جون وولف، يذكر في أول كلمة من فصله المعنون استيلاء الأتراك على الجزائر قائلا: (في سنة 1830 نزلت حملة فرنسية على مدينة الجزائر وقضت بسرعة على النظام التركي الذي احتل هذا الجزء من المغرب أكثر من ثلاثة قرون.). [2]

---

1 - أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1990، ج3، ص186.

2 - جون. ب. وولف، **الجزائر وأروبا 1500-1830**، ترجمة أبو القاسم سعد الله، عالم العرفة، الجزائر، 2009، ص21.

وللأستاذ سعد الله رأي صائب، منطلق من تخمين ودراية، مفادها أن محاكمة العصور القديمة بنفس الواقع الحاضر، يمثل خللا تاريخيا، ولاسيما في مسألة الوجود العثماني في الجزائر والمغرب الإسلامي. (ونريد أن نشير إلى الاطروحة التي تتردد عندنا وهي: هل الدولة العثمانية كانت غازية أو منقذة لنا نحن الجزائريين ومن في حكمنا من سكان المغرب العربي؟ إن اسقاط فكرة ما في عصر معين على عصر آخر قبلها أو بعدها فيه أحيانا مغامرة كبيرة قلما ينجو مرتكبها من الوقوع في الزلل. فالجزائر لم تكن دولة قائمة بذاتها (ذات سيادة) في القرن السادس عشر حتى نقول أن العثمانيين أسقطوا تلك الدولة وحلوا هم محلها، ونصبوا أنفسهم مستعمرين أو محتلين. لقد كانت تتعايش في الجزائر عدة دويلات وإمارات، ومن شأن تلك الدويلات والإمارات عدم القدرة على دفع الضيم ورد المعتدين الطامعين الأقوياء في بسط نفوذهم. وقد كانت القوة التي تهدد الجزائر عندئذ هي اسبانيا المسيحية التي لم تكتف بإخراج العرب والمسلمين من الأندلس، بل طاردتهم في غرب البحر الأبيض واحتلت أجزاء من المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا، تمهيداً لإلحاق المنطقة كلها بالمعسكر الغربي المسيحي الذي تتزعمه (اسبانيا). فكان دور الدولة العثمانية في ذلك الظرف الحرج من الصراع الحضاري المشار إليه، هو "إنقاذ" المغرب العربي من الوقوع في دائرة الدولة الاسبانية

المسيحية والاحتفاظ بالجزائر خاصة في دائرة الحضارة الإسلامية التي تمثلها الدولة العثمانية). [1] ويحدد طرفي الصراع بدقة، حتى يلفت النظر لما ينبغي التفكير فيه والترويج له للأجيال، حتى تعرف مكمن الداء وبؤرة الصراع الحقيقية (هكذا الوضع في القرن السادس عشر يوم كان طرفا النزاع حضارتين تمثلان في الإسلام والمسيحية وتمثلهما دولتان كبيرتان هما العثمانية والاسبانية). [2]

وهو يؤمن - وفي أخريات أيامه - أن العهد العثماني في الجزائر، ليس (تواجدا ولا دخولا، لأن التعبيرين يعنيان زمنا قصيرا غير مؤثر، بينما العهد العثماني "ثلاثة قرون وأكثر" له تأثيره وطابعه الخاص، ولكن تقادم العهد جعلنا ننساه وننشغل بالعهد الفرنسي الأقرب منا). [3]

(ومع ذلك لم تحظ حتى الآن كما قلنا إلا بدراسات "برانية" ومعظمها معادية للوجود العثماني أصلاً، تبعا للأحكام التي أصدرها ضده الفرنسيون الذين عبأوا إعلامهم منذ حملتهم على الجزائر ضد كل

---

1 - أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996، ج4، ص ص187-188.

2 - نفسه، ج4، ص188.

3 - مراد وزناجي، **حوار صريح مع أ. د. أبو القاسم سعد الله**، منشورات الحبر، الجزائر، 2008، ص ص112-113.

ما هو عثماني (تركي)، واصمين العثمانيين بالغزاة، والأجلاف، واغتصاب المال والقسوة والجمود والانغلاق الذهني والفكري). [1]

**3-معالم الشخصية الجزائرية في العهد العثماني:**

يرى سعد الله ضرورة دراسة هذا العهد من تاريخ الجزائر، لأنه قدم الكثير، ويكفيه فخرا، أن معالم الشخصية للمجتمع الجزائري، ودولته المستقلة فيما بعد، تحددت شخصيتها، ورسمت ملامح هويتها في هذا الزمن العزيز، الذي عرف البطولة والجهاد، والعزة والشهامة.

(لو عرف الجزائريون تاريخهم كله، ولو تشبعوا من دراسة العهد العثماني وأن الجزائر قد أخذت شكلها الجغرافي والسياسي منذ هذا العهد لامتلأوا فخرا واعتزازا، فوجود العاصمة "الجزائر" يرجع إلى هذا العهد، والحدود السياسية ترجع إلى هذا العهد، والشكل الجغرافي -ماعدا الجنوب- يرجع إلى هذا العهد، والمعاهدات الدولية مع رجالها يشهد عليه هذا العهد، والأسطول تأسس في هذا العهد، والوحدة الترابية من مخلفات هذا العهد، وسك العملة ووجود الراية ترجعان إلى هذا العهد). [2]

(وقد حدثت نقلة كبيرة في العهد العثماني، لأن الهوية تجلت بشكل ظاهر للعيان، فرغم أن الجزائر التاريخية لم تظهر كهوية سياسية

---

1 - أبو القاسم سعد الله، **حاطب أوراق**، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص120.

2 - مراد وزناجي، المرجع السابق، ص ص112-113.

إلا في القرن السادس عشر فإنها كمنطقة جغرافية غامضة ترجع إلى قرون قبل ذلك، وهي تشترك في ذلك مع جاراتها في العنصر البشري والمناخي والظروف المعاش، وبالتالي تشترك معها في الإنتاج الحضاري). [1]

وربما الذين يحاكمون العهد العثماني ويدينون حكامه، يؤكدون على بعض المفاسد والتي لم تكن معادية للثوابت، ولا مؤثرة سلبا على الهوية الوطنية آنئذ، وفي هذا المجال أشار سعد الله إلى أمرين أساسيين في تاريخ الحكام ورجال السلطة في الجزائر:

-أولهما حول المفاسد من الحكام، ونظرة الجزائريين لهم: (والحق أن معظم الجزائريين أثناء هذا العهد كانوا يصنفون الحكام العثمانيين بأنهم "أتراك" و"أعاجم" ذلك أن هؤلاء الحكام كانوا دائما من خارج الجزائر، وأن أغلبهم لا يتكلم إلا التركية، وكانوا من أصول مختلفة "تركية، يونانية، والبانية، وإيطالية... الخ" ولذلك كانوا ينعتون أيضا "بالأعلاج" وكانوا في معظم الأحيان جهلة لا يعرفون حتى القراءة والكتابة، كما كانوا مغامرين لا فائدة لهم في الحكم إلا جمع المال

1 - أبو القاسم سعد الله، **خارج السرب مقالات وتأملات**، منشورات دار البصائر، ط2، الجزائر، 2009، ص48.

والتسلط، ثم أنهم كانوا يحكمون الجزائريين بيد من حديد ويسلبونهم أموالهم وثرواتهم عن طريق الضرائب والرشى والهدايا ونحوها...).[1]

-ثانيهما الجانب المشرق لنصرتهم الدين، ودفاعهم عن حياض الإسلام، (وقد كانوا غزاة مجاهدين تحالفوا مع الجزائريين لصد العدوان الصليبي وحماية الثغور، وإقامة حكم إسلامي ثابت وقوي ظل ثلاثة قرون شوكة في حلق العدو... وقد ظل عامل الجهاد هو العامل الموحد الأساسي بينهم وبين الجزائريين. ورغم أن معاملة الجزائريين لهم كانت على أساس الأخوة الإسلامية فإنهم قد جعلوا الحكم (تركيا) وليس (إسلاميا) فلم يشركوا الجزائريين معهم فيه). [2]

ولدارس التاريخ أن يتساءل، أمام إهمال الثقافة، وعدم رعايتها ودعمها، هل وقف العثمانيون في الجزائر حجر عثرة أمام عناصر الهوية، وهل حاربوا المقومات الحضارية من لغة ودين وأدب وقيم اجتماعية، ومؤسسات أصيلة في المجتمع؟ ولكن البحث في جهود الجزائريين، وتمسكهم بالقيم جعل الهوية واضحة، والشخصية الجزائرية متميزة في خضم تلك التناقضات، ويمكن الوقوف عند أساسيات عناصر الشخصية الجزائرية، كما رآها سعد الله:

---

1 - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الاسلامي، ط1، بيروت، 1998، ج1، ص ص14-15.

2 - نفسه، ج1، ص15.

**أ-اللغة العربية:**

ذكر في مجال اللغة المستعملة لدى الأتراك، والأندلسيين، وأخيرا عموم الجزائريين، (وكان الانكشاريون والأوربيون يستعملون لغاتهم الأصلية أو التركية، أما الأندلسيون فكانت لغتهم هي العربية، وباعتبار العربية لغة الدين فإنها كانت مفهومة للجميع إلى حد ما، ولكنها كلغة ثقافة وإنتاج أدبي وعلمي لم تكن مستعملة (مكتوبة) إلا من قبل الأندلسيين والمثقفين الجزائريين، ومن المفهوم أن بقية السكان لم تكن لهم إلا معرفة بسيطة (معرفة دينية) بالعربية المكتوبة، لأن الأمية الثقافية كانت في قمتها.) [1]

والصورة البارزة للغة العربية لدى أفراد المجتمع الجزائري، أنها كانت (لغة التعليم في المدارس والزوايا والمساجد، وهي اللغة الأدبية التي تؤلف بها الكتب والبحوث، وهي أداة التعامل في المحاكم الشرعية ومجالس الفتوى وسجلات النوازل الفقهية، وهي التي تحرر بها الرسائل الشخصية والمراسلات الرسمية، وتوثق بها عقود الأوقاف والمواريث، وتكتب بها محاضر المداولات الإدارية والمنازعات في كل أنحاء القطر. وهي كذلك لغة الأدباء والخطباء، وفي نفس الوقت كانت اللهجات العربية الدارجة واللهجات البربرية مستعملة في الحياة

1 - أبو القاسم سعد الله، **قضايا شائكة**، منشورات دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص121.

اليومية بين المواطنين، ولعل هناك من كان يكتب بهذه اللهجة أو تلك بعض الرسائل الإخبارية والمعلومات الشخصية... والمعروف أن الحروف العربية هي التي كانت مستعملة سواء تعلق الأمر باللهجات الدارجة أو اللغة التركية).[1] وعلى هذا الأساس كانت اللغة العربية سيدة في أرضها، ولم تحارب خلال ثلاثة قرون، مثلما فعلت فرنسا أثناء احتلالها للجزائر، هذا الفارق الشاسع والذي جعل العثمانيين، مختلفين في معاملاتهم للشخصية الجزائرية، التي بدأت ملامحها تتجسد وتأخذ شكلها النهائي في هذا العهد المجيد.

**ب-الدين الإسلامي:**

كان الدين الإسلامي تقليديا، وحافظ عليه السلوك العام، والمؤسسات الرسمية من مساجد وزوايا، ومدارس يتلقى فيها التلاميذ المبادئ الأولية لأحكام الدين، مع حفظ القرآن الكريم. (فالعثمانيون قد دافعوا في البداية عن الدين الإسلامي وشجعوا تيار التصوف في البلاد وأوقفوا بعض الأوقاف على المؤسسات الدينية وساهموا في بناء الزوايا والمساجد والكتاتيب، فكأن نظرتهم إلى الدين في داخل البلاد

1 - أنظر: أبو القاسم سعد الله، " اللغة العربية في مواثيق الحركة الوطنية" ، **مجلة الكلمة،** الصادرة عن الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، العدد الرابع، شعبان 1413-يناير 1993، ص5.

كانت نظرة تعبدية محضة).[1] وساهمت المؤسسات الدينية والتعليمية في تثبيت القيم الدينية والروحية في حياة الناس فكانت بعض (المدن تنمو بعدد سكانها وتشع بمدارسها ومساجدها ثقافة يتغذى منها المجتمع روحيا وعقليا... ففي كل مدينة من هذه المدن عائلات اشتهرت بالعلم والتأليف والدرس أو بالزهد والتصوف.)[2]

وكان الولاء للدين الإسلامي هو المبدأ عند الحكام عموما: (ومن الخطأ إطلاق اسم (الأتراك) على الوجق وأهل السلطة خلال العهد العثماني في الجزائر. ذلك أن الوجق كان يتكون من عثمانيين، وهو بهذه الصفة كان يضم أجناسا مختلفة اللسان والعرق والجغرافية ولكنها جميعا تتفق في الولاء للإسلام والسلطان. فالصفة الموحدة للوجق إذن هي (العثمانية) وليست (التركية).[3]

**ج-الثقافة الوطنية:**

تبلورت الثقافة الجزائرية، وتجلت في نشاطات المثقفين من العلماء والأدباء والشعراء، وتجلت في الموروث الثقافي الغزير، رغم الجمود والإنحطاط الذي وصف به هذا العهد الذي (أسس لأدب جزائري وطني كنا نفتقده فيما مضى، أي عهد الإمارات والممالك المتصارعة،

1 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص18.

2 - نفسه، ج1، ص ص44-45.

3 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص139.

فالسلطة العثمانية تأسست في الربع الأول من القرن السادس عشر "العاشر الهجري" ومعها تأسست هوية جزائرية حديثة ذات أدب وشعر وذوق محلي من مكونات اللغة الواحدة، والذوق المشترك والأدب المعبر عن خلجات كل المواطنين).[1]

وكانت المدرسة التقليدية تصنع الفكر، وتبلور التعلق بالوطن: (وكانت حلق الدروس حول كل أستاذ مشهور سواء في المدرسة أو الجامع أو في الزاوية، هي المنبع الذي ينهل منه تلاميذ وطلاب القرن التاسع، وهو نفسه المنبع الذي ظل يغذي أجيال المتعلمين المسلمين بثقافة تقليدية، ولكنها كانت تحتوي على شرارات كامنة في انتظار الفرصة).[2]

**د-القيم الاجتماعية:**

إن القيم الاجتماعية هي الوجه المشرق لهوية المجتمع، ومصدر قوته، ورمز عزته وسؤدده. وكلما خالفت الدين والعقيدة، أفسدت تقاسيم ذلك الوجه، وخدشت كرامته، وصاح الضمير مناديا إلى دفع ذلك الخطر. والذي نلمسه من قيم المجتمع خلال هذا العهد، هو الاحتفاظ بالقيم العربية الإسلامية، ووحدة الرابطة بين السكان،

1 - أبو القاسم سعد الله، **حبر على ورق**، منشورات دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص101.

2 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص46.

ووجود عادات وتقاليد أساسها الشريعة الغراء، وأعظمها الوحدة الوطنية.

(فالمجتمع الجزائري ظل، مع ذلك محتفظا بقيمه العربية الإسلامية. حقا أن هذا المجتمع لم يكن قد وصل بعد إلى مرحلة "المجتمع الوطني" الذي نتحدث عنه اليوم. ولكنه كان بالروابط الموحدة دينيا وسياسيا وخلقيا ولغويا، قد وصل إلى مرحلة المجتمع الواعي المتماسك والمتجاوب. وكانت هناك العادات والتقاليد، المبنية بدورها على التشريع الإسلامي، التي تشكل عامل وحدة قوية في المجتمع... وهذه الظاهرة [يعني الانسجام] كافية للدلالة بدورها على وجود المجتمع الجزائري الموحد خلال العهد العثماني). [1]

وهو المجتمع المحافظ، الذي لم يتعرض للغزو الفكري الأوربي: (ورغم المغامرات البحرية والعلاقات التجارية مع أوروبا والحروب التي أدت إلى وفرة الأسرى المسيحيين واختلاطهم بالسكان فإن المجتمع الجزائري ظل خلال هذا العهد مجتمعا إسلاميا شرقيا منغلقا على نفسه، فالأفكار الأوربية قلما تسربت إليه). [2]

**هـ-الشعور والاعتزاز بالانتماء الوطني:**

إن العهد العثماني في الجزائر، برز فيه الوطن بكل وضوح: (لأن

---

1 - المرجع السابق، ص ص152-153.

2 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص164.

الجزائر الحالية في الواقع قد تشكلت تقريبا خلال هذه الفترة: سياسيا واجتماعيا وشعورياً. ففكرة الدولة ظهرت خلال هذه الفترة بكل مقوماتها: من حكم مركزي وحكام أقاليم، وإدارة محلية، واقتصاد متكامل، ودبلوماسية نشطة تشمل توقيع المعاهدات، وفتح القنصليات، وتبادل الأسرى، ووجود أسطول يرهب عدو الله وعدو البلاد، وعملة ثابتة ومتنوعة، وراية خاصة، ومراسيم سيادية عديدة. وكان إطلاق كلمة الجزائر على القطر كله قد ظهر خلال هذه المرحلة، وهي مرحلة تجاوزت الثلاثة قرون). [1]

وإن الولاء للوطن أمر بارز لدى المجتمع الجزائري، بما فيه من الوافدين من تركيا والبلاد الأخرى، وكذلك الشأن مع السكان الأصليين، ومن تولد من جراء التزاوج والمصاهرة:

أما العنصر الوافد، فإن الإسلام والولاء للسلطان العثماني كان يوحد بين جميع أفراد المجتمع، وحتى العناصر التركية والأندلسية، والانكشارية ومنهم أبناء الأوروبيين، وإن كانوا في تعاملاتهم متأثرين بأصولهم الأوربية لأنهم يعتبرون الضفة الشمالية متفوقة حضاريا. [2] فلم يتنكروا للبلاد بل اعتزوا بها ودافعوا عليها وسقط منهم الشهداء.

1 - أبو القاسم سعد الله، حاطب أوراق، ص ص119-120.

2 - أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة، ص120.

أما بقية المجتمع، (وقد تصاهر الجزائريون مع العثمانيين واندمجت أسر كثيرة من الطرفين حتى كونت نسيجا اجتماعيا واحداً، وساد مذهبهم الحنفي في طبقة مولدة (الكراغلة) منهم حتى أصبحوا يؤلفون فئة اجتماعية متميزة و"وطنية" حاولت أن تستولي على السلطة وأن تؤسس لمجتمع جزائري جديد ولكنها فشلت. وكان العثمانيون في المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لا يكادون يختلفون عن الجزائريين). [1] ومما يجب التنبيه إليه أن (أبرز ما تتجلى فيه العلاقة بين الجزائريين والعثمانيين هو الاشتراك في الجهاد البري والبحري ضد الغارات الأوروبية المتكررة على السواحل الجزائرية ومدنها). [2]

**الخلاصة:**

إن الشخصية الوطنية للجزائر، ظهرت جليا، واكتملت عناصرها في العهد العثماني، لأن الوحدة الجغرافية خلال ثلاثة قرون كان كافيا لاندماج الشعب الجزائري وتفاعله، واكتساه حسا اجتماعيا، نابضا بالعناصر الأساسية للحرية والاستقلال عن العهود السابقة. والفضل الأول للنظام السياسي الذي ترك حرية واسعة للنشاط، والذي تبلور في الاعتزاز بالدين الإسلامي، وترك المجال واسعا للغة العربية سيدة

1 - أبو القاسم سعد الله، حاطب أوراق، ص284.

2 - نفسه، ص285

.

في أرضها، زاخرة بالعطاء الفكري والعلمي والثقافي، فضلا عن التعامل بها في مؤسسات المجتمع.

كما أن الروح الوطنية كانت قاسما مشتركا بين الراعي والرعية، ويكفي أن الجهاد البحري يخوضه الجميع، وهو شرف متواصل إلى آخر هذا العهد. وتبين من هذه الدراسة أن عناصر الهوية، وتفاعل المجتمع الجزائري معها، هو الذي جعل فرنسا تحاول خلال قرن وثلث، أن تغير وتبدل، ولكنها عجزت عن مسخ الشعب، والسبب هو تجذر العناصر، وأخذها قسطها من الثبات والرسوخ، ويعود ذلك – وبدون أدنى شك – إلى العهد العثماني الذي نفتخر به، ونمجده دوما، لأنه العهد الذهبي للجزائر وشخصيتها الوطنية.

# القسم الثاني

## الدور الاجتماعي للعلماء في الجزائر وإفريقيا
## وأثرهم الدعوي والصوفي

**أولا**: الدور الدعوي والروحي للشيخ عبد الرحمن الأزهري الجرجري في إقليم دارفور بالسودان وأثره على الجزائر ما بين 1754-1763.

**ثانيا**: دور الشيخ المختار الكنتي الكبير في نشر الإسلام وتعاليمه في إفريقيا الغربية والوسطى في القرن 18م.

# الدور الدعوي والروحي للشيخ عبد الرحمن الأزهري الجرجري في إقليم دارفور بالسودان وأثره على الجزائر ما بين 1754- 1763

**ـ تمهيد:**

كانت فترة القرن الثامن عشر الميلادي، مرحلة هامة في تاريخ التصوف في الجزائر، بظهور طرق صوفية جديدة، وكان بعضها امتدادا لمدارس صوفية في داخل البلاد وخارجها، وأهمها الرحمانية والتجانية.

وكانت البداية الأولى لمؤسس الطريقة الرحمانية، الشيخ عبد الرحمن الأزهري الجرجري، في مصر، وبين سواري وأروقة الأزهر الشريف، وفي حضرة الطريقة الخلوتية، وعلى يد شيخها محمد بن سالم الحفناوي، الذي أخذ بيد مريده، وكلفه بالذهاب إلى خارج مصر، والقيام بالدعوة والتربية الروحية.

وكانت وجهته بلاد السودان، وفي إقليم دارفور، كانت للأزهري نشاطاته التربوية والعلمية، وممارسة التصوف العملي الميداني. وسوف أدرس في هذا السياق التاريخي، الدور الهام للشيخ المؤسس. والإشكالية تكمن في الكشف عن أهمية إقامته بدارفور، وآثارها على حياته الروحية، ومدى مساهمتها في تأهيله في تولي المشيخة في الجزائر، والتألق في المسار الصوفي؟

وفعلا كانت مدة معتبرة في تاريخه، دامت نحو سبع سنوات، قضاها داعيا للدين، معلما لأحكامه، مربيا للأتباع والمريدين، وأبرزهم الحاكم الذي عاش معه. ولا شك أن هذا الانقطاع للعلم والتدريب العملي، كان له ثمرة يانعة، سجلها في دفاتره، وصارت رصيدا لقواعد وأصول طريقته.

لقد كان دور الشيخ عبد الرحمن رائدا في ربط العلاقات، وتوطيد صلات الأخوة والمحبة بين ثلاث دول عربية إسلامية (السودان ومصر والجزائر). وعندما نجح في تجربته الدعوية وتربيته الروحية في السودان، صار مؤهلا للمرحلة الموالية، حين كلفه شيخه بالرجوع لبلاده، ومواصلة التعليم والتربية، وكانت مرحلة التواصل مع إفريقيا جنوب الصحراء هي القاعدة الأولى للعلاقات.

**1 ـ سيرة الشيخ عبد الرحمن وبدايته التربوية:**

**أ ـ النسب والمولد والنشأة:** هو محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن يوسف بن أبي القاسم، وينتهي نسبه إلى الأصل الشريف. [1]

ولد بقرية بوعلاوة بعشيرة آيت إسماعيل من إقليم قشطولة أو

1 ـ أبو القاسم الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، موفم اللنشر، الجزائر، 1991، ص298.

قطولة (1). من أرض جرجرة، حوالي سنة 1126-1133هـ/ 1714-1720م. [2]

نشأ الشيخ بجبال جرجرة وبها زاول تعليمه الأولي، على الشيخ ابن اعراب في قرية آيت ايراثن ومع الشيخ امحد بن بلقاسم التاجديوي، وكان الشيخ ابن اعراب قد زار مصر، وتعلم في الأزهر الشريف، وعاد برصيد علمي غزير، وعاد إلى موطنه وتجمع حوله الكثير من طلبة العلم، ولا شك أن حديثه عن العلم بالمشرق، شوق تلميذه عبد الرحمان أن يقتفي أثره، وشد الرحال مثل شيخه، فرحل إلى الحج، ولما عاد استقر في مصر،[3] في حدود عام (1152هـ/1740م) وارتبط بالأزهر الشريف، مجاورا برواق المغاربة، وأخذ العلم عن علماء أجلاء، من أبرزهم الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الحفني، والشيخ علي بن أحمد الصعيدي،[4]والشيخ علي

1 ـ وهي منطقة بونوح في دائرة بوغني بولاية تيزي وزو، وتقع قرية آيت إسماعيل على بعد 15 كلم إلى الشرق من ذراع الميزان في منطقة جرجرة من الجزائر.

2 ـ عبد الرحمن الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر، 1994، ج4، ص47.

3 ـ يحي بوعزيز، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، دار البصائر، الجزائر، 2009، ج1، ص299.

4 ـ عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص47.

العمروسي، والشيخ محمد بن عبد الله التلمساني المعروف بالمنور،والشيخ أحمد بن محمد العدوي الشهير بالدردير. [1]

**ـ التربية الصوفية في مصر:**

خلال دراسته بالأزهر وجد عناية في الجانب الصوفي، والذي كان محل اهتمام أساتذته، ومنهم أتباع الطريقة الخلوتية، [2]التي كان الشيخ محمد بن سالم الحفناوي من أتباعها، وهو من الشيوخ الذين جمعوا بين علم الشريعة والحقيقة، ويومها كانت الخلوتية كثيرة الانتشار في تلك الأوساط العلمية كما أرخ الجبرتي في تاريخه عجائب الآثار.

ولما كان يدرس بالأزهر، كان يزور منزل شيخه محمود الكردي،[3] أو منزل شيخه الثاني الذي أثر في تربيته وتوجيهه، وهو

---

1 ـ عبد المنعم قاسمي الحسني، **الطريقة الخلوتية الرحمانية : الأصول والآثار منذ ظهورها إلى غاية الحرب العلمية الأولى**، رسالة دكتوراه تحت إشراف الدكتور عمار جيدل، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2008/ 2009، ص221.

2 **الطريقة الخلوتية :** طريقة صوفية تنسب إلى الشيخ سراج الدين عمر الخلوتي (توفي بتبريز سنة 800هـ/1397م)، ولقب بالخلوتي لكثرة التزامه بالخلوة، واعتمد التربية عندهم على الذكر بسبعة من الأسماء الحسنى في سبع خلوات. واستمر وجودها قويا في إيران إلى العهد الصفوي، ثم انتشرت بعد ذلك في بقية العالم أنظر: عبد الباقي مفتاح، **أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية**، دار الوليد، الوادي – الجزائر، 2004، ص19.

3 ـ **محمود الكردي:** فقيه صوفي من رجال الخلوتية، أصله من إيران، وتوفي بمصر 1195، وصلي عليه بالأزهر.

الشيخ الحفناوي،[1] وحينها يحضر حلقات الذكر، وهي أهم ما ينمي العلاقة الروحية ويجسدها. ولم يمنعه المهجر من بناء حياته الاجتماعية، فتزوج من ابنة عمه التي أرسلها إليه أهله من بلاد زواوة.[2] وخلال تلك المرحلة الهامة في حياته الروحية، أرسله شيخه للقيام بالسياحة الروحية، ونشر الطريقة، فسافر إلى السودان والهند وقام بالأمر على أكمل وجه.[3]

**2 ـ دور الشيخ عبد الرحمن الأزهري في بلاد السودان:**

عرف الشيخ بالأزهري، لأنه أخذ العلم في رحاب المسجد الشريف، وصار مؤهلا لتبليغ العلم، وترقية المريدين وتربيتهم روحيا، وكانت بلاد السودان متاخمة لمصر، فوجهه الشيخ إليها لتكون تجربة ميدانية رائدة في حياته. وكانت بلدة دارفور يومها تعرف بدولة دارفور الإسلامية، [4] وهي في حاجة ماسة للعلم والتربية، وسكانها يستقبلون

---

1 ـ **محمد بن سالم الحفناوي:** من شيوخ العلم والتصوف في مصر (توفي 1181 هـ/1767) ومن رجال الخلوتية، وله عدة تآليف علمية. أنظر: عبد الباقي مفتاح، المرجع السابق، ص36.

2 ـ عبد المنعم قاسمي الحسني، الرجع السابق، ص222.

3 ـ يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص299.

4 ـ **دارفور:** مديرية بالسودان، عاصمتها الفاشر، تقع بأقصى الجزء الغربي مع السودان، وكانت إحدى محطات التجارة الهامة في القارة الإفريقية، استوطنتها عدة قبائل عربية وافريقية، ومنذ سنة 1445م أسس سليمان سلونق العربي، من قبيلة الفور، =

وهي في حاجة ماسة للعلم والتربية، وسكانها يستقبلون العلماء ويجلونهم، وهذا ما ظهر من مكث الشيخ الأزهري بينهم نحو ثماني سنوات ما بين (1168-1177هـ/1754-1763 م)، ومما قام به في دارفور:

**أ ـ الدعوة إلى الله:** بتبليغ الإسلام ونشر أحكامه بين الناس وخصت دعوته الراعي والرعية على حد سواء، ووجدت كلماته قبولا، وصار محل الاقتداء والتعليم، ولاسيما من حاكم البلدة التي كان يسكنها، (ونجحت دعوته في السودان نجاحا كبيرا، وفي رسالة بعثها إلى نقيبه بتونس بلحسن اليوسفي قال إنه أقام ست سنوات في دار فور السودان ليقرئ السلطان هناك).[1]

**ب ـ نشر التصوف:** كان شيخه الحفناوي قد أجازه الإجازة الأولى، وسمح له باستعمال الأسماء في الذكر مثل "لا اله إلا الله، الله، هو، حق، قيوم وغيرها" وهي أصل السلوك عند المتصوفة، وهي من ركائز الطريقة الخلوتية، وتركت دعوته أثرها في سلطان البلاد، الذي مهد له السبيل للوصول إلى عامة الناس. وقد ورد في مخطوط مناقب

---

= دولة دارفور الإسلامية واستمرت نحو 430 سنة من (1445- 1875م). أنظر: أحمد عبد القادر أرباب، **تاريخ دارفور عبر العصور**، الخرطوم، 1998. نقلا عن عبد المنعم قاسمي الحسني، الرجع السابق، ص222.

1 ـ عبد الباقي مفتاح، المرجع السابق، ص61..

الأزهري للجعدي: (وجهه إلى بر العبيد، يعطي أوراد الطريقة البكرية الخلوتية في بر العبيد، فوصل إلى بـرن، وأقام به أربعة سنين، ونشر أوراد الطريقة المذكورة، وأخذ عنه خلق كثير لا يعلم عدده إلا الله... حاصله، حتى أخذ عنه سلطان برن وألقى نفسه إليه، حتى صار يتصرف فيه كتصرف الميت بيد الغسال...). [1]

**ج ـ تأسيس الزوايا في دارفور:**

ولما لقيت دعوته القبول، كون عددا من الأتباع المقربين، وأسس الزوايا في أطراف البلدة، وصار له عدد من المقاديم الذين يلهجون بذكره، ويسعون لفعله، ويتبركون بأثره، وهذا ما أشار له الجعدي في مخطوطه السابق : (... وعمر زوايا كثيرة في بر العبيد، جعل يعلم مقاديم يذكرون الناس، ويعلمهم أمر دينهم...). [2]

**د ـ الخلوة كأساس للتربية:** مما يوصي به الشيخ مريده أن يقلل في مرحلة من حياته من مخالطة الناس، والاختلاء بنفسه حتى تتم تربيتها، ويتعلم الأنس بالله تعالى،[3] وقد انقطع في "خلوة السرداب"

---

1 ـ محمد الجعدي، **مناقب الشيخ الازهري**، نقلا عن عبد المنعم قاسمي، المرجع السابق، ص223.

2 ـ نفسه، ص223.

3 ـ رفيق العجم، **موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي**، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 1999، ص332.

تحت الأرض، لمدة ثلاثة أشهر، حتى وقع له الفتح، [1]ووصف بنفسه في رسالة ما رآه من أسرار وأنوار، وما مر به من الامتحانات.[2]وكانت له خلوة ثانية وتعرف "بخلوة الجمل" ورافقته في عودته من دار فور إلى القاهرة، وجسدها في رسالة ضمنها الواردات والمرائي التي حدثت له، وأشار إليها الجعدي في المناقب السابقة الذكر..[3] وكان رجوعه من دارفور إلى القاهرة مع زوجته وخادمه.[4]

والجدير بالذكر أن رحلته إلى دارفور كانت بمثابة الإمتحان الميداني، والدورة الحقيقية في تربية نفسه، ولهذا طلب منه شيخه العودة إلى القاهرة، وأجازه الإجازة الثانية العامة المطلقة، التي أهلته لتبليغ سائر العلوم، وتلقين أوراد الطريقة الخلوتية، وكان ذلك فور عودته من دارفور سنة 1763م. [5]

---

1 ـ **الفتح:** هي حالة من الرقي الصوفي، فيكشف الله له الحجب، ويصير يرى بنور الله، ويتطهر من كل الذنوب، ويصير ربانيا.

2 ـ عبد المنعم قاسمي الحسني، الرجع السابق، ص241.

3 ـ نفسه، ص241.

4 ـ أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الغرب الا سلامي، ط1، بيروت، 1998، ج4، ص140.

5 ـ نفسه، ص223.

كما لحق به أخوه الأكبر محمد، حتى يستقر معه بمصر، ولكن الشيخ الحفناوي أمرهما بالعودة إلى الجزائر معا لنشر العلم وتربية الخلق، فألبسه الخرقة [1] الصوفية، [2]وهي دليل على العهد الذي قطعه على نفسه، ومبايعة شيخه على التزام الطريق المستقيم والسبيل القويم.

**3 ـ أثر رحلة السودان في مسيرة الشيخ في الجزائر:**

عاد الشيخ عبد الرحمان للجزائر في حدود عام 1183 هـ/ 1770م، بعد أن صار مؤهلا للتبليغ والتربية، وتمت إجازته من شيخه، وكانت بدايته واعظا مرشدا ببجاية في مسجد سيدي محمد أمقران، [3] ثم تركه بسبب الحساد من المرابطين ورجال التصوف، لأنه كسب قلوب المريدين، [4] وتمت إقامته في بقية حياته بموطنين على الترتيب:

**أ ـ إقامته في مدينة الجزائر:**

انتقل الشيخ إلى الحامة قرب العاصمة الجزائر، واشتغل بالوعظ والتدريس، وتبليغ العلم، فالتف حوله طلاب العلم من عدة أماكن

---

1 ـ **الخرقة:** ثوب خشن يلبسه الشيخ لمريده، وهو دليل على الارتباط بين الشيخ ومريده، الذي فوض نفسه عند شيخه، والذي يأخذ بيديه إلى الصواب، وهي البيعة في صورتها المجسدة بالخرقة. أ نظر: رفيق العجم، المرجع السابق، ص320.

2 ـ أبو القاسم الحفناوي، المرجع السابق، ص300.

3 ـ يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص300.

4 ـ عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص47.

وذاع صيته بين الناس، وأهدى إليه أفراد من عائلة بني عيسى قطعة أرض شيد عليها زاوية صغيرة، صارت مأوى مريديه وطلبته. ولكن الغيرة والحسد تحركت عند المنافسين، فحقد عليه بعض العلماء، واتهموه بالابتداع والخروج عن مذهب أهل السنة والجماعة، وأوصلوا أمره للحاكم، فجمع الداي محمد عثمان باشا كبار الفقهاء والعلماء في الجامع الكبير، وحاوروه ولكنه أفحمهم وأبطل إدعاءاتهم، وأبدى تفوقا كبيرا، مما جعل الداي يحبه ويستضيفه في قصره عدة أيام، وأخذ عنه أوراد الطريقة، وأصبح من أتباعه.[1] ورغم هذا النجاح، قرر الشيخ الرجوع إلى مسقط أصله، والعيش بقية عمره بين أهله وذويه.

**أ ـ إقامته في آيت اسماعيل:**

استمر الشيخ في دعوته، وتبليغ أوراد طريقته، وتأهيل المريدين والشيوخ، ومنهم الشيخ أحمد التجاني وأخذ عنه العلم في منزله بجرجرة، والشيخ عبد الرحمان باش تارزي القسنطيني، والشيخ محمد بن عزوز البرجي الطولقي، والشيخ يحي بن عيسى. [2]

وتوفي الشيخ في حدود 1208 هـ / 1794م في بلدته آيت

1 ـ يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص300.

2 ـ عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص ص51-53.

اسماعيل، ودفن بزاويته، [1] ولكن أهل الجزائر، وبدعوة من الداي مصطفى باشا، ذهب أربعة نفر من أتباعه ونقلوه ليلا إلى زاويته بالحامة، [2] فأصبح يعرف باسم "بوقبرين". [3] والأتراك خافوا من كثرة الأتباع حول قبره البعيد، فأرادوه قريبا حتى يكون الزوار تحت مراقبتهم الشديدة. [4]

**ـ الخلاصة:**

تزخر حياة الإنسان، بالمآثر والقيم، والتي تتعدى المجال المحدود إلى آفاق بعيدة، وفي حياة عبد الرحمان الأزهري عبر عديدة:

ـ كشفت حياته عن قيمة الرحلة ودورها الفعال في تزكية الفرد، والزيادة في علمه، والربط بينه وبين المهجر، وهذا ما لمسناه في مصر التي كان الأزهر الشريف محضنا لتربيته الروحية واكتنازه من العلم الحقيقي.

---

1 ـ عبد الباقي مفتاح، المرجع السابق، ص62-63.

2 ـ عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص47.

3 ـ ذكر حمدان خوجة رأيا آخر، بقوله: " ودفن في الحامة، وذات ليلة اختطف القبائل جثته وحملوها إلى جبال جرجرة ثم دفنوها في قرية فرومة على مقربة من فليسة" أنظر: حمدان خوجة، **المرآة**، ترجمة وتحقيق محمد العربي الزبيري الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص58.

4 ـ عبد المنعم قاسمي الحسني، الرجع السابق، ص232.

ـ كانت حياة الأزهري ورحلته إلى دارفور في القرن الثامن عشر، رابطا قويا، وتاريخا مشعا للجزائر التي ساهم أحد علمائها في نشر العلم، وربط العلاقات الروحية بين المسلمين، الذي ظهر بأنهم أمة واحدة، بنيت حياتهم على التعاون والنفع.

ـ تركت إقامة الازهري في السودان، أثرا في نفسه، لأنها كانت مرحلة للنفع، وزرع بذور التصوف الخلوتي في السودان، ومازالت آثارها إلى الآن في ذاكرتهم الشعبية وكتاباتهم العلمية، وتحتاج إلى البحث عنها وإبراز الخفي من أحداثها.

ـ دور شيوخ مصر من الطريقة الخلوتية في ترقية أتباعهم، وهذا جعل عبد الرحمن الأزهري علما من أعلام الجزائر في التصوف والعلم، وكان لطريقته دور في العمل والجهاد للمستعمر الفرنسي.

# دور الشيخ المختار الكنتي الكبير في نشر الإسلام وتعاليمه في أفريقيا الغربية والوسطى في القرن 18م

**تمهيد:**

عرفت الجزائر بدورها الكبير في نشر العلم وتبليغ الرسالة الإيمانية في ربوع الصحراء الجزائرية، وتعداها إلى جنوب الصحراء الإفريقية في الناحية الوسطى والغربية، وكان سفراؤها من الدعاة والعلماء وشيوخ الطرق الصوفية.

وكان لقبيلة كنتة العربية، السبق في نشر الإسلام بين الزنوج، وإرساء مراكز للتعليم وبناء المؤسسات التي حافظت على القيم، ومكنت للإسلام في ربوع القارة، ومتنت الصلات بين الناس.

وأبرز العلماء في القرن الثامن عشر الشيخ سيدي المختار بن أحمد الكنتي الكبير، وعرف بالكبير تمييزا له عن حفيده، المختار الصغير المتوفى في النصف الأول من القرن التاسع عشر، (سنة 1847م).

وكان له الدور الأسمى في التعليم، ونشر الطريقة القادرية التي مثلت منطلقا هاما في تلك الربوع، ولكن الإسلام هو العنصر الفعال، والمقصد الأسمى عند الشيخ الداعية، والذي ترك تراثا زاخرا من المخطوطات، والمؤلفات التي كشفت عن القيمة العلمية لرجال

الفيافي، والكنوز العلمية لأهل الصحراء، وأظهرت معادن العلماء العاملين.

**1 ـ نسبه ومولده:**

**ـ النسب:** هو المُختار بن أحمد بن أبي بكر بن محمَّد بن حبيب الله بن الوَافي بن الشّيخ سيدا عمر بن الشَّيخ سيدا حمد البَكَّاي بن سيدي مُحمَّد الكُنتي بن سيدي علي بن يحي بن عثمان بن يَيَس بن دُومان بن وَرد بن العَاقب بن عقبة المُستَجاب، فاتح إفريقيا والمغرب الأقصى. [1] فهو ذو نسب شريف، يرتقي إلى عقبة بن نافع، فاتح المغرب الأوسط وبلاد المغرب الإسلامي.

**ـ قبيلته:** عرف بالكنتي نسبه لجده من أمه، وهو من قبيلة كنته إحدى القبائل العربية المنتشرة في غرب إفريقيا، وموريطانيا ومالي والنيجر، وجنوب المغرب، والجزائر وحتى السنغال. [2]

---

1 - نور الدين كنتاوي، " الشيخ المختار الكنتي الكبير، حياته ومآثره"، **مجلة رفوف**، مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا، جامعة أدرار – الجزائر، العدد الثامن، ديسمبر 2015، ص267. بن نعمية عبد المجيد، فرح سعد، " قراءة في مخطوط الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد محمد الخليفة بن المختار الكنتي (ت 1242 هـ /1826م)"، **المجلة الجزائرية للمخطوطات**، جامعة وهران 1- الجزائر، العدد 14، يناير 2016، ص10.

2 - وبالجزائر يتواجدون في منطقة عين قزام ولاية تمنغست، وبتوات ولاية أدرار وهي المنطلق الأصلي للقبيلة، ويعرفون فيها باسم العقبيين نسبة إلى عقبة بن نافع الفهري فاتح إفريقيا. أنظر: محمد السعيد بن سعد، " الشيخ سيدي المختار الكنتي العقبي، حياته وآثاره"،

ـ **مولده:** ولد على أشهر الأقوال في حدود عام 1730 م [1] في منطقة تدعى "كثيب أوغال" جنوب شرق أدرار، [2]وعاش بالأزواد وهي المنطقة الواقعة شرق موريتانيا وشمال نهر النيجر وجنوب الجزائر.[3] وأفراد القبيلة يكثرون التنقل بين تمبكتو وتوات، لكثرة أملاكهم، مما جعل انتسابهم لمنطقة محددة صعب التمييز. وأتباع البكائية ينتمون إلى جدهم الكنتي، عمر بن أحمد البكاي الذي عاش في القرن 16م (ولد سنة 1504م)، والذي أخذ الطريقة عن الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، وللبكائية زوايا في توات وتمبكتو. [4]

**2ـ طلبه العلم:** كانت نشأته في الصحراء بين المراعي يسوس الإبل والأغنام، ولكن تلك الحياة لم تشغله عن طلب العلم، وحفظ ما تيسر من القرآن، حتى بلغ سن الثالثة عشر من عمره، فتاقت نفسه إلى المزيد، فرحل في الصحراء من مدينة إلى أخرى طالبا العلم، عند السوقيين، ثم توجه إلى تمبكتو فوجدها فقيرة من العلم، فهجرها إلى

---

**مجلة الذاكرة**، مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، جامعة أدرار – الجزائر، العدد السابع، ماي 2016، ص ص28-29.

1 - محمد السعيد بن سعد، المرجع السابق، ص30.

2 - نور الدين كنتاوي، المرجع السابق، ص269.

3 - محمد السعيد بن سعد، المرجع السابق، ص29.

4 - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998، ج4، ص ص278-279.

بالكويهي وغيرها، وتمكن من حفظ مختلف العلوم والفنون، من فقه ونحو وبلاغة، وأصول وعلم التفسير والحديث. [1]

وبلغ من العلم شأوا عظيما مكنه من التأليف والتصنيف، وزادت مؤلفاته عن الثلاثمئة كتاب، عرف منها نحو الثمانين، والموجود نحو الأربعين. [2]

**3ـ نشاطه ونشره العلم:**

**ـ إنشاء المدارس:** أنشأ الشيخ مدارس كثيرة في منحنى نهر النيجر وموريطانيا والصحراء لنشر العلم، وتبليغ الإسلام، ودعوة الزنوج الى الحق، وكان يقوم بالإنفاق على الطلبة والمعلمين، ويزودهم بالمواد الغذائية من أرز وحبوب ولحوم مجففة. [3]

وتتلمذ على يديه عدد هائل من طالبي العلم والمعرفة، وبرز منهم علماء أجلاء، الذين صاروا شيوخا لهم مصنفات وعلوم مدونة، وهي من ثمرات الشيخ واقتداء بهديه الكريم، ومن أبرز تلاميذه النجباء، ابنه الخامس محمد خليفة الكنتي، وهو الذي اختاره خليفة من بعده، وتولى شؤون الطريقة بعد وفاة والده سنة 1811م. ومنهم أيضا الشيخ

1 - نور الدين كنتاوي، المرجع السابق، ص ص270-273.

2 - محمد السعيد بن سعد، المرجع السابق، ص33

3 - نور الدين كنتاوي، المرجع السابق، ص273.

سيدي الاييري، ويحيى بن عبد الله الجراري، وأحمد بن حمادي بن بوبو، ومحمد المامي. [1]

**4ـ نشر التصوف:** لقد ارتبطت الطريقة القادرية في الصحراء وبلاد السودان الغربي بالكنتيين، والدور الذي قام به الداعية عبد الكريم المغيلي في أوائل القرن 12 الهجري وانتشرت الطريقة على يد الشيخ سيدي أحمد البكاي الذي أوصلها إلى السينغال. [2] كما أصبح سيدي علي الكنتي قطبا للقادرية، وعند انتقال قبائل كنتة إلى منطقة توات، تطورت القادرية عندهم، في القرن الخامس عشر، وصار بعضهم يزورون برنو وينشرون القادرية. [3]

ويعتبر المختار الكنتي المجدد للطريقة في زمنه في القرن 18م، والذي أخذ أوراد الطريقة وعمره 14 سنة في حدود (1743م) من الشيخ علي بن نجيب وصحبه أربع سنوات، ولما توفي شيخه، اتجه الى ولاتا عند مقام جده الشيخ أحمد البكاي، وعندما تمكن من العلوم الشرعية، وتربى في الطريقة القادرية، صار كبير شيوخها سنة

---

1 - المرجع السابق، صص274-278.

2 - صالح بوسليم، محمد الزين، " حركة التصوف ونشاط الطرق الصوفية بإقليم توات وافريقيا الغربية خلال القرنين 12-13هـ / 18-19 م، حياته ومآثره"، **مجلة الحوار المتوسطي**، جامعة سيدي بلعباس، العدد الخامس، ص37.

3 - عبد الله عبد الرزاق ابراهيم، **أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية**، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1990، ص37.

1756م.[1] وسكن الشيخ في نواحي تمبكتو، وأسس زاويته في شمالها في أواخر القرن 18م، والحقها بفروع في تمبكتو وماسينا، وقصدها الطلبة من مختلف إنحاء إفريقيا الغربية. [2] واحتضنت زواياه الأتباع من العلماء والوزراء والحكام والقضاة، وكان لكل زاوية خزانة تجلب مؤلفات علماء السودان لاطلاع المريدين عليها.[3]وتوسع نطاق الطريقة، وامتد شعاعها إلى البلدان المجاورة، السينغال ونيجيريا وغينيا، فضلا عن مالي وتواصل توسعها على أيدي خلفائه، ابنه الشيخ محمد (ت 1826م) وحفيده الشيخ مختار الصغير (ت 1847م) والشيخ البكاي (ت 1865م). [4]

وهكذا صارت للشيخ المختار مكانة روحية كبرى بين قبائل الصحراء من إقيم ولاتا في الغرب إلى إدرار في الشرق. [5]وتلك المكانة الروحية مكنت الشيخ مختار من جمع شمل قبائل التوارق والأفارقة، وسهر على حقن الدماء، وإصلاح ذات البين، وتمتين الصلات والروابط الأخوية بينهم، وأصبح صديقا للعربي والتارقي والزنجي. كما متن صلته بالحكام والأمراء، وتبادل معهم الرسائل

1 - عبد الباقي مفتاح، **أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته**، دار الهدى، عين مليلة – الجزائر، 2008، ص410.

2 - صالح بوسليم، محمد الزين، المرجع السابق، ص37.

3 - نور الدين كنتاوي، المرجع السابق، ص274.

4 - عبد الباقي مفتاح، المرجع السابق، ص410.

5 - عبد الله عبد الرزاق ابراهيم، المرجع السابق، ص38.

والسفارات والهدايا، وصار بعضهم طوع أمره، ومنهم أمير بورنو في الشرق، وأمراء الفلان في الجنوب، وأمراء الزنوج، وأمراء التوارق الآيير وإيلمدن، وأمراء العرب بشنقيط. [1]

**الخلاصة:**

يتضح من استعراض سيرة الشيخ المختار الكنتي الكبير، الدور الذي اصطفاه الله اليه، والمهمة التي بلغها، وبقي التاريخ شاهدا عليها:

ـ كشف الموضوع عن دور قبيلة عربية في مجاهل إفريقيا وصحرائها القاصية، وهي قبيلة كنتة المتفردة، والتي لعبت دورا مهما إلى جانب البربر، والزنوج، وكانت خادمة لهم، وجامعة لشملهم في كثير من الأحيان.

ـ انتماء القبيلة وشيخها لفرع من الأشراف، وهم أحفاد فاتح إفريقيا عقبة بن نافع الفهري، وهو الذي أعطى القبيلة مكانة، بهذا النسب العريق، والذي يجد القبول والترحاب من الناس، بسبب الانتماء العقائدي، والاتصال الروحي.

ـ ظهر أن الصحراء بين الأزواد، تزخر بكنوز من العلم والمعرفة، ولم تمنعهم قساوة الطبيعة، وشدتها من الإقبال على العلم، والتصنيف فيه، وبناء المدارس والمساجد والزوايا التي كان لها

1 - محمد السعيد بن سعد، المرجع السابق، ص38.

الجهد الكبير في المحافظة على القيم الدينية، والتماسك في المجتمع.

ـ أهمية الطريقة القادرية في حياة الشيخ وأفراد قبيلته، والتي كانت مجال التأطير، ولكن الإسلام هو المعلم الذي أعطى قيمة للطريقة، وللشيخ، لأنه حبب للناس الخير والصلاح، وكانت الطريقة إلى جانب طرق أخرى تعمل لنشر الإسلام الذي وحد الجميع على البر والتقوى.

ـ المساهمة الفعالة في نشر الإسلام، في ربوع كثيرة في الجنوب الجزائري، وفي تمبكتو، والنيجر، ونيجيريا وغينيا والسنغال وغيرها، واستقطاب المريدين والأتباع، وتعليمهم أحكام الإسلام.

ـ تربية وتعليم جيل من الطلبة والتلاميذ الذين حفظوا تراثه، وبلغوا الدعوة، وواصلوا مسيرته، وكانوا مصدر نور أينما حلوا، لأنهم حراس العقيدة وحماة الدين.

ـ وصول دعوة الشيخ إلى مختلف فئات المجتمع، بل وصل تأثيرها في الحكام والأمراء الذين أخذوا أوراد الطريقة، وخدموا الإسلام في مناطقهم، وقربوا بين الناس اقتداء بشيخهم المختار الكنتي.

وتبقى حياة المختار الكنتي نبراسا في المجال الجغرافي الشاسع، والتي أبرزت دور العلماء وبقاء تأثيرهم على مدار الأجيال، لأنهم صمام الأمان، ودعاة الحق الباقي بدون منازع، بأمر الله تعالى الذي وفق هذا الشيخ لخدمة الدين الذي أعطاه هذه المكانة المرموقة، فرحمه الله برحمته الواسعة.

# القسم الثالث
## تأسيس المجتمع المحلي
## وعلاقته بباياك الشرق الجزائري

**أولا**: علاقة سيدي عون بن مهلهل السوفي بصالح باي قسنطينة من خلال وثيقة الإعفاء من دفع الضرائب السلطانية.

**ثانيا**: ملامح مجتمع وادي ريغ من خلال تاريخ محمد العدواني

## علاقة سيدي عون بن مهلهل السوفي بصالح باي قسنطينة من خلال وثيقة الإعفاء من دفع الضرائب السلطانية.

**ـ تمهيـد:**

كانت حاجة البايلك ملحة في جمع الضرائب من الرعية في الأقاليم التابعة للباي، ويتطلب ذلك جهدا في تحصيلها من شيوخ العرب ورؤساء القبائل المخزنية، أو السلطات المحلية (سلطة بني جلاب في تقرت)، وحينئذ يضطر البايلك إلى تجريد الحملات، وتنظيم المحلات العسكرية لتأديب الأقاليم المستعصية، وأخذ الضرائب عنوة، وهذا ما وقع في عهد صالح باي قسنطينة في إقليم وادي ريغ، وأطرافه التابعة، ومنها منطقة (وادي سوف) سنة 1788. وحينئذ كانت سوف تستخلص منها الضرائب وتُجمع لفائدة السلطة في قسنطينة بواسطة السلطنة الجلابية في إمارة تقرت، التي اتخذها البايلك واسطة بين الطرفين.

وتوالت المحلات على إقليم وادي سوف من طرف السلطة الجلابية، وسفكت الدماء، وتعددت المعارك، وكانت تنتهي في كل مرة بجمع الغنائم، وفرض الضرائب بالقوة، وذلك السلوك الفض، يبرز ـ بشكل جلي ـ غلو السلطة في ظلمها للرعية، واكتفائها بجمع المال

على حساب القيم، وإغفالها للمجتمع، وتهاونها في رعاية مؤسساته، وعدم الالتفات إلى تطوير التعليم، أو دفع السكان للعمل، أو إنجاز المشاريع الهامة، وإهمال الزراعة والصناعة التي كانت من اهتمامات الرعية دون تشجيع من السلطات الحاكمة.

وبعد إلحاح وطلب لدى صالح باي، تم إعفاء الشيخ سيدي عون بن مهلهل وذريته من دفع الضرائب لسلطات تقرت ووادي سوف منذ سنة 1791، تقديرا لهم، ورفعا لمقامهم بين السكان، لأنهم من أهل الشرف والصلاح، وذلك يكشف عن علاقة البايلك مع فئة من الرعية، تميزها عن غيرها لحاجة في نفس الباي، ما دامت تلك الفئة تدين بالولاء والطاعة، وهي علاقة تعكس جانبا من كسب الود لصالح السلطة، لإعطاء نوع من الاحترام لأصحاب الشرف، وإظهار سلطة البايلك بوجه من العدالة الموجهة، وهي تنم عن سلوك نفعي برغماتي، لإضفاء الشرعية على الحكام.

والجدير بالذكر أن السلطة في عهد صالح باي ـ وبعده ـ لا تعطي عهدا مفتوحا لرجال الصلاح، فعندما تظهر المعارضة، من أي طرف من السكان، تقابل الخارجين بالقصاص الشديد، الذي يرتقي إلى الانتقام الدموي، مثلما حدث للشيخ المرابط سيدي أحمد الزواوي، والذي عجزت عساكر الباي عن الفتك به وولت مدبرة على أعقابها،

وهذا عامل مهم جعل التعامل مع الشيوخ، ورجال التصوف يشوبه الحذر تارة، والتؤدة والمكافأة تارة أخرى.

وحول هذه المعاني، ومن خلال الوثيقة التي أعفي بها الشيخ المرابط سيدي عون وآل بيته من الضرائب، نكشف عن جوانب من معاملات السلطة مع الرعية في إقليم وادي سوف.

وتتمحور الدراسة حول حياة صالح باي، وسياسته مع الرعية، وركائز الإدارة في الإقليم الشرقي والتعرض لجوانب من سيرة الشيخ المرابط الصوفي، سيدي عون الطرودي السوفي، ودوره في وادي سوف، ومدى اهتمام السلطة التركية بالضرائب، وأهميتها في إدارة البايلك، واتخاذها مصدرا أساسيا لتزويد دار السلطان بالدنوش المفروض عليها، فضلا عن علاقة رجال التصوف، وفئة الأشراف، بالسلطة الحاكمة بين الود والمعارضة، ورصد السلوك المتغير لدى السلطات حسب الظروف المتاحة.

**أولا: التعريف بالوثيقة:**

**ـ وصف الوثيقة:**

الوثيقة عبارة عن ترخيص أو بيان إعفاء من دفع الضرائب، عن أحد أشراف وادي سوف، الشيخ سيدي عون بن مهلهل، وهي وثيقة تركية صادرة عن صالح باي قسنطينة.

ومصدر الوثيقة من ملحقة الوادي، وصارت عند القايد حسين زبيدي، الذي اشتغل في الملحقة، وكان قايدا على أولاد اسعود، وهذا مكنه من أخذ نسخة عن الوثيقة، وسلمها نجله عزالدين زبيدي في التسعينيات من القرن الماضي إلى السيد أحمد خراز، الذي تفضل بمنحي نسخة منها. وهي مكتوبة بخط عادي، وهو الخط المغربي المعروف بوادي سوف، وتتلخص في إعفاء فئة من أشراف الجهة الشمالية من دفع الضرائب بوادي سوف، وتاريخها يمتد من سنة 1206-1277هـ.

وتحتوي على قسمين:

ـ القسم الأول من الوثيقة: عرض نص الإعفاء الموسوم ب" تحرير من الباي صالح إلى عون بن أحمد بن مهلهل" وأطلق لفظ "التحرير" بدل "الإعفاء" لأنها تحرره من عدة قيود مالية وغيرها من الالتزامات المقيدة.

وبدأ النص بالحمد والصلاة على النبي الكريم على عادة الكتاب والموثقين في ذلك العصر، ثم تطرق للجهات المقصودة بهذا التحرير، الصادر عن بايلك الشرق، للتطبيق والاحترام، لحامله من الأشراف، وهؤلاء من صف الحكام وأعوانهم:

أ) العمال: الذين يسهرون على جمع الضرائب مباشرة من الرعية.

ب) القياد: وهم الذين خول لهم العناية بعمليات جمع الضرائب، وتوجيه العمال والمتصرفين في مختلف النواحي ولدى القبائل.

ج) سائر المتصرفين: وهم رجال السلطة التركية في وادي سوف، ومنهم شيوخ القبائل، وفي تقرت والمقصود بهم سلاطين بني جلاب، وشيوخ العرب في بلاد الزاب، الذين يؤازرون سلطة الباي، ومعهم الجند المحارب مع الفئات السابقة أثناء خوضهم الحروب الدامية مع الرعية المتمردة؛ ولكنهم مع رجال الشرف يلتزمون جانب الاحترام والتقدير ولاسيما حاملي هذا التحرير.

أما المستفيد من الإعفاء، فقد ذكرته الوثيقة بأبهى الأوصاف، الدالة على زهده وورعه، وفضله بين العامة، ووردت عبارة: " إنا أنعمنا على المكرم الأجل العابد الزاهد" وكذلك عرف بنسبه الكامل " الشيخ السيد عون بن أحمد بن مهلهل البليلي الطرودي". كما أشار التحرير إلى حفظ زاويته في شمال سوف، ورفض الوصاية عليها، وكل سكانهم من أبنائه وأبناء أخيه، يسري عليهم الإعفاء، وتضفى على شانهم الرعاية.

وختم التحرير بخلاصة، حددت الشيء الذي حرر منه الشيخ عون وأهله، وهي الضرائب، وسميت بالأسماء التالية:

ـ المطالب المخزنية: وهي الضرائب المستخلصة من طرف القبائل الموالية للسلطة التركية.

ـ الوقائف السلطانية: وهي الأموال التي يكون معظمها موقوفا لدار السلطان، وهي مصدر الدنوش الذي يقدم للداي في عاصمته. وعبرت عليها وثاق أخرى باسم الضرائب أو الأدوات الدولية، نسبة للدولة.[1]

وأكد التحرير على عدم مطالبة الأشراف بدفع الضرائب، ووجهت تحذيرها للسلطات المحلية وهم مشايخ تقرت وسوف، ومشايخ العرب في الزاب، وذلك يبرز أن تلك السلطات المختلفة، تتدخل في شؤون سوف والقبائل المخزنية.

وختم هذا التحري بتاريخ 1206هـ وتوافق 1791م، وهي السنة ما قبل الأخيرة لحكم صالح باي، الذي كان بتوجس خيفة من كل حركة يقوم بها الخصوم، فعمل على كسب ود الأشراف حتى يستفيد من دعمهم في وقت الحاجة.

ـ القسم الثاني من الوثيقة: وهو ملخص لتحرير آخر: وذَكَرَ جملةً واحدة، وتتمثل في إعفاء السيد محمد الشريف الحسني ببلدة البهيمة المتاخمة لبلدة سيدي عون سنة 1207هـ والتي توافق سنة 1792م، ولكن من طرف الباي الجديد حسين بوحنك، ويظهر أن أشراف البهيمة رفعوا مطلبا للسلطة، واستفادوا من الإعفاء على نهج سيدي عون.

---

1 - أنظر: سالمي مصطفى، **الدر المصفى**، جمع وتعليق وتحقيق علي غنابزية، مخطوط، 2001، ص103.

أما الأمر الثاني الذي ختمت به الوثيقة: كان ذكرا لتجديد التحرير السابق في حق سيدي عون من طرف أحمد باي سنة 1237هـ/الموافق 1821م، ومن طرف شيخ العرب بالزاب فرحات بن سعيد، ثم من طرف ابنه علي باي بن فرحات بن سعيد الذي ولي من طرف السلطة الفرنسية على تقرت وسوف، وذكرت الوثيقة تاريخ 1277هـ وهي توافق 1860م بدايات التوغل الفرنسي في المنطقة، علي باي تولى ما بين (1854-1871) واتسم حكمه بالظلم، [1] ولكنه استمر في إعفاء الأشراف كسبا للمرابطين وأصحاب النفوذ الديني، ليضفي على حكمه نوعا من المصداقية. والوثيقة هي ملخص لعدة عهود، وكأنها تقرير أعد لبيان مسيرة تاريخية في معاملة السلطات العثمانية في البايلك وحتى العهد الاستعماري.

**ـ نص الوثيقة:**

تحرير من الباي صالح إلى سيدي عون بن أحمد بن مهلهل

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ليعلم من يقف على هذا الأمر الكريم والخطاب الواضح الجسيم

---

1 - علي غنابزية، **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ/19م**، رسالة ماجستير، تحت إشراف الدكتور عمر بن خروف، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2001، ص54.

العلي شاءنه (كذا) النافذ حكمه وأمره من العمال والقواد وسائر المتصرفين في نواحي سوف وتقرت من العرب والأجناد أنا أنعمنا على المكرم الأجل العابد الزاهد الشيخ السيد عون ابن أحمد بن مهلهل البليلي ثم الطرودي على أننا أنعمنا عليه وحررنا له زاويته التي في ظهرة سوف بأن حررناه وابناءه (كذا) وهم محمد وبلقاسم وإبراهيم وموسى وعلى وعمار، وأبناء أخيه المرحوم سي إبراهيم وهم سي أحمد وبوبكر وأحمد وبلقاسم جررنا الجميع من المطالب المخزنية والوقائف السلطانية لا يطالبهم أحد من مشايخ تقرت ولا من مشايخ سوف ولا من مشايخ العرب. في أوائل شعبان المعظم سنة 1206.

ـ مثل هذا التحرير أنعم على السيد محمد الشريف الحسني بالبهيمة سنة 1207 من الباي حسين.

جدد التحرير على سيدي عون سنة 1237 من طرف السيد أحمد باي وأيضا وافق على ذلك فرحات بن سعيد وبعده ابنه علي باي 1277.

**ثانيا: شخصيات الوثيقة:**

**1) صالح باي (1171-1792) :**

يعتبر هذا الحاكم من أحسن بايات قسنطينة، ولاسيما في الإنجازات العامة بالمدينة.

ولد بمدينة أزمير سنة 1137هـ/1725م، في أسرة متوسطة الحال، ولكنه اضطر إلى مغادرة بلدته في سن السادسة عشر، وكان يلعب مع صديقه الحميم، فتسبب في قتله بدون قصد، فاضطر إلى الهجرة نحو الجزائر، لينجو من انتقام والد صديقه، [1] ويومئذ عمل في أحد المقاهي التابعة للأوجاق، فتعرف على بعض رجالاتها، الذين ساعدوه على الانضمام لفرقتهم، والالتحاق بحملة الشرق السنوية بقيادة الباي أزرق العيون، للمشاركة في جمع الضرائب من الأرياف.[2] وظهر في قسنطينة بمهاراته الحربية، ومقدرته الإدارية، فأعجب به القائد أحمد القلي، مما جعله يحظى بإكرامه لما تولى بايا على قسنطينة سنة 1756، وصار صديقا مقربا منه، وزوجه بابنته، ثم ولاه قيادة الحراكته لمدة ثلاث سنوات (وهي وظيفة تسند لأهم شخصية بعد الباي) وبعدها ارتقى إلى منصب خليفة الباي لست سنوات (1765-1771) وكان فيها السند القوي لصهره الباي أحمد القلي، الذي أرسله نائبا عنه، لتقديم الدنوش الصغرى للداي محمد

---

1 - ناصر الدين سعيدوني، **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص50.

2 - أوجين فايست، **تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792-1873م**، ت صالح نور، دار قرطبة، ط1، الجزائر، 2010، ص25.

عثمان باشا، فاكتسب ثقة الداي،[1] وساعده ذلك في توليته بايا على قسنطينة بعد موت صهره أحمد القلي سنة 1771م. [2]

ـ أهم أعماله:

كانت قسنطينة في عهده في رخاء، وشهدت نهضة عامة، لأنه أدار البلاد كأنه الملك المستقل، ولكنه يدين بالولاء والطاعة للداي محمد عثمان باشا إلى آخر حياته. وأهم أعماله:

ـ عمل على تهيئة وتجميل قاعدته الإدارية (مدينة قسنطينة)، وأنشأ المساجد وأبرزها مسجد سيدي الكتاني والمدرسة الملاصقة له [3] وخصص جزءا هاما من دخل البايلك لبناء المساجد والمدارس في قسنطينة، وتعداها إلى المدن الأخرى والواحات الصحراوية، وزودها بالأحباس الجديدة، مع تدعيم القديمة وتفعيلها.

ـ استعان بالعلماء والفقهاء ورجال القضاء في التعليم، من أجل رفع مستوى الآداب والعلوم، ووضع مخططا للتعليم بني على أسس لا تقل شأنا عما كانت عليه أوربا، واستقدم منها رجال الهندسة والفنون، لتهيئة المنشآت العمرانية وتشييد القناطر وإصلاحها. [4]

---

1 - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص60.

2 - أحمد توفيق المدني، **محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص133.

3 - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص134.

4 - اوجين فايسات، المرجع السابق، ص ص53-58.

ـ قاد جنوده للدفاع عن الأيالة عندما حارب الإسبان البلاد في حرب الساحل سنة 1184، وحقق نصرا مؤزرا، [1] وحافظ على حدود البايلك مع تونس واجبرها على الخضوع لشروط الصلح، ورضي الباي التونسي حمودة باشا بالأمر الواقع، وذلك بحسن سياسة صالح باي وحكمته.[2]

ـ عرف النشاط التجاري في عهده ازدهارا، وأصبحت قسنطينة ملتقى القوافل التجارية التي تجوب أنحاء الشرق الجزائري، وتربط البايلك بكل من الجزائر وتونس وغدامس. [3]

ـ كان لصالح باي الدور الكبير في توحيد القطر الجزائري بحدوده الحالية حول السلطة المركزية، وإليه يرجع الفضل في ضم بلاد الجنوب للسلطة التركية، وأبطل تمرد القبائل ولاسيما جبال عمور سنة 1785، ووصل في زحفه نحو الأغواط، وتأثرت بلاد ميزاب، وأعلنت انضمامها للسلطة، وتعهدت بدفع مبلغ محدد للخزينة سنويا، مع بقاء ميزاب حرة داخليا، مراعاة لخصوصية نظام العزابة الذي دعمه الباي المحنك سياسيا، وشملت السلطة التركية الصحراء ومنها تقرت وإمارة

---

1 - أنظر: أحمد الشريف الزهار، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار**، نقيب أشراف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص ص26-27.

2 - اوجين فايسات، المرجع السابق، ص ص37-42.

3 - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص69.

بني جلاب منذ 1789، [1] وكانت وادي سوف تابعة لها.

- نهاية صالح باي:

تورط صالح في عدة أعمال عجلت بنهاية حكمه، فقد تسبب في قتل الخزناجي في عهد محمد باشا، وكان صهرا للداي الجديد حسن باشا، ففي عهد ولايته، حرضته زوجته (ابنة الخزناجي) على صالح باي من جهة، [2] كما أن خصوم صالح باي ابلغوا الباشا أنه ينوي الاستقلال بإقليمه، فأصدر أمرا بعزله وتعيين إبراهيم باي الملقب ببوصبع مكانه، لكن صالح باي تمرد، وقتل الباي إبراهيم غيلة بعد إطلاق سراحه، وكان يسعى لدى الداي في العفو عنه، ولكن بريق السلطة أعمى بصيرته، فتسرع وقتل من أكرمه غدرا. [3]

ولما انتشر خبر مقتل إبراهيم باي، أثار سخطا كبيرا لدى السكان، وثاروا بسلاحهم على صالح باي، ودخل الإقليم في حرب، وحينئذ أرسل أعيان قسنطينة يستنجدون بالداي الباشا بابا حسن، فعين حسين ابن بوحنك بايا، وأرسل للسكان يدعوهم إلى مناصرته في القبض على صالح باي، فتم ذلك والقي في السجن، واتجه ابن بوحنك إلى البايلك، وأعطى أمرا بقتل صالح باي، الذي مات مخنوقا من

1 - احمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص ص138-139.

2 - احمد الشريف الزهار، المرجع السابق، ص64.

3 - اوجين فايسات، المرجع السابق، ص ص66-68.

طرف جلاديه،[1] بحصن القصبة ليلة الأحد 16محرم 1207هـ/الموافق لليلة 1أو2 سبتمبر 1792، وترك عشرة أبناء، (ثلاثة أولاد وسبع بنات). [2] ويومها انتهى حكم هذا الباي الذي حكم البايلك حكما مطلقا لأكثر من عشرين سنة حقق فيها بعض الإنجازات، وصاحبها بعض المآسي العابرة. [3] وصار الإقليم بعد وفاته مرتعا للفوضى والتطاحن بين أسرتي ابن قانة وبوعكاز وأنصارهما على حكم البايلك، وتصارع بين أسرتي ابن قانة وابن جلاب على حكم تقرت [4] والجنوب بوادي سوف ونواحيها.

**2) سيدي عون الطرودي:**

هو ابن أحمد الراشد بن سيدي عون بن مهلهل البليلي، من قبيلة طرود العريقة في وادي سوف ونواحيها.

ـ أصوله ونسبه: جده سيدي عون بن مهلهل البليلي الطرودي، من أشراف المغرب الأقصى، رحل منها وطاف في كثير من البلدان إلى أن وصل مدينة قسنطينة، ومنها انتقل إلى بلاد الزاب، وكان رجلا ضعيف البصر، وقيل كفيفا، يحفظ القرآن الكريم ويدرس العلوم

1 - المرجع السابق، ص ص71-74.

2 - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص70.

3 - اوجين فايسات، المرجع السابق، ص ص73-74.

4 - محمد العربي الزبيري، **التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1984، ص32.

الشرعية، والتقى في الزاب بقوم من بلدة الزقم والوادي من سكان سوف، كانوا يكتالون الحبوب، فالتمس منهم المرافقة إلى بلدهم، فقبلوا منه ذلك، وفي الطريق نبههم بحدسه المرهف، أن يختفوا في منخفض قريب خوفا من الإغارة، فامتثلوا أمره، وفعلا نجوا من قطاع السابلة (الطريق) الذين مروا دون انكشاف أمرهم، وعدوها كرامة للشيخ، رفعت مكانته لديهم، فأكرموه، وأقام معهم في بلدتهم مدة من الزمن.[1]

- رحلة الجد إلى تونس:

هاجر سيدي عون إلى بلاد الجريد التونسية طلبا للرزق، واشتغل بنشر العلم والقرآن عند قبيلة الهمامة وأولاد الهادف، وتزوج امرأة منهم، وتولى الإمامة في توزر، واشتهر بينهم بالصلاح، وتبوأ لديهم مكانة مرموقة، فكان المرشد والقاضي والمصلح، وتعلق الناس به، وتبركوا بآثاره، فولَّد ذلك غيرة وحسدا لدى أولاد الهادف الذين أحسوا بسحب القيادة منهم، فاغتنموا غيابه وأحرقوا بيته وكتبه، ولما رجع أحس بالإهانة، وقرر ترك البلدة والرجوع إلى سوف، وكانت زوجته حاملا، فطلقها، وأوصى صهره بتسمية المولود باسم "علي" إن كان ذكرا، ولهم الحرية في تسمية الأنثى، وفعلا ولدت زوجته ذكرا

1 - إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تح الجيلاني العوامر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، الدار التونسية للنشر- تونس، 1977، ص334.

سمي" علي بن عون بن مهلهل" وهو مؤسس البلدة التابعة لتوزر وتدعى اليوم بلدة سيدي علي بن عون، وأهلها في الوقت الحاضر على صلة ببلدة سيدي عون بوادي سوف، يتبادلون الزيارات، ويصلون الرحم. [1]

- رجوع سيدي عون لسوف:

رجع سيدي عون الأكبر إلى بلدة الزقم، وتزوج امرأة خيرة، ولدت له ولدا عرف باسم "أحمد الراشد"، والذي أنجب من الأبناء سيدي عون الأصغر، وغيره من الأبناء، [2] وتوفي أحمد الراشد في حياة والده ودفن في الزقم الشرقية، ولحق به سيدي عون الأكبر حوالي عام 1195هـ/1781م، ودفن قرب ابنه. [3] وبعد مدة وقع خلاف بين أبناء سيدي أحمد الراشد، والذي دفع سيدي عون الأصغر وأخته السيدة هنية إلى مغادرة الزقم إلى القرب من الطريفاوي في بلدة تدعى بلالة،[4] التي ذكرتها رسالة صالح باي. وبقي مشتغلا برعي الغنم، ولكن وحشة المكان، ووقعت له وقائع مع

---

1 - لقاء مع السيد ميدة كمال، حمدي رشدي يوم 1997/08/25 والهاشمي ابراهيمي يوم 25 اوت 1998، بسيدي عون.

2 - أخوة سيدي عون الأصغر هم إبراهيم ومحمد، وثلاث بنات هن عزيزة، ومريم، وهنية. أنظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص334-335).

3 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص334-335.

4 - المرجع السابق، ص335، لقاء مع أحمد خراز ببيته بالوادي، أوت 1998.

الذئاب، وقطاع الطريق، [1] وعضدها رؤية منامية من اخته هنية، أوحت بتخريب المكان، وحينئذ سارع سيدي عون في الرحلة وتأسيس بلدته الحالية. [2]

ـ دور سيدي عون في بلدته:

وضع سيدي عون الأصغر (صاحب الإعفاء) حجر أساس بلدته سيدي عون، في أواخر القرن18 (أي بعد سنة 1781م)، ويومئذ كانت المنطقة تحت حكم صالح باي الذي أرسل لجمع الضرائب من قرى سوف، [3] وكانت تؤخذ عنوة، وهذا دفع سيدي عون إلى التظلم لدى الباي في قسنطينة، والرواية الشعبية تذكر قصة شبه أسطورية، مفادها أن سيدي عون تخاصم مع جيرانه من سكان بلدة البهيمة، فشد الرحال إلى قسنطينة، واشتكاهم إلى صالح باي، وعندما أدخل عليه وجده شيخا ذو لحية كبيرة، ويرتدي شاشا (أي عمامة) من الصوف، وعفان (حذاء صحراوي) من الشعر، فلم تعجبه هيئته، فأمر بإخراجه، وبمجرد خروجه، ارتج الكرسي تحت قدمي الباي، فأمرهم بإرجاعه للمجلس، وتحاور معه، وتعرف عن أحواله،

1 - لقاء مع الهاشمي إبراهيمي 25اوت 1998بسيدي عون.

2 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص335.

3 - نفسه، ص219.

واكتشف أنه يشترك معه في النسب، وهذا كان دافعا قويا لإكرامه، وإعفائه من دفع الضرائب المخزنية.

والرواية الأقرب، أن أعوان الباي عندما شرعوا في جمع الضرائب من سوف، رفض سيدي عون تقديم نصيبه، فلما سألوه عن السبب، أخبرهم أنه محرر (أي شريف)، فلم يسمعوا له، واعتقلوه، وحملوه معهم إلى مركز السلطة، ولما حاوره وجده من أهل الشرف، وتربطه علاقة النسب بالباي، فأعفاه من الضرائب، وأعفى أبناء أخيه إبراهيم، وبعث برسالة إلى مشايخ تقرت وسوف والعرب يأمرهم بتنفيذ المقرر.

كما حددت له أرضه المحررة من الضرائب، إلى حدود قمار غربا، والجبل شمالا، وشرقا المنشية وحدود حاسي خليفة، وجنوبا قارة لضواو، وبقي أبناء سيدي عون وأحفاده لا يدفعون الضرائب إلى زمن دخول السلطة الفرنسية. [1]

ـ وفاة سيدي عون:

توفي سيدي عون في بلدته التي أسس بها زاويته في أواخر القرن 18م، وكانت نواة للمسجد الذي يحوي قبة ضريحه، وهو المسجد العتيق بسيدي عون.

1 - لقاء مع الهاشمي إبراهيمي يوم 25 اوت 1998، بسيدي عون.

**ثالثا: موضوع الضرائب:**

لقد سنت الإدارة العثمانية نظاما ضريبيا متنوعا، بحكم تنوع التضاريس والمناخ وتعدد النشاط الاقتصادي، وهذا جعل الضرائب متنوعة في صفتها، فمنها الرسوم والغرامة وغيرها، وكانت الضرائب المفروضة على المناطق الصحراوية، متمثلة في المعونة والعسة، وتدفع على شكل نقود، أو عينية، أو هما معا. [1]

كانت الضرائب المستخلصة في العهد التركي في الأقاليم، مثار تدافع بين السلطة والرعية، وانقسمت القبائل إلى ثلاث فئات:

ـ القبائل المعفاة من الضرائب، وهي قبائل المخزن التي تشكل دعما للسلطة، ويكون الإعفاء منها ثمنا لخدماتها.

ـ القبائل الخاضعة، والتي تدفع الضرائب باستمرار، دون معارضة.

ـ القبائل الممتنعة، وهي المعروفة بالرعية، [2] وتتمرد على السلطة، وهذا يدفع إلى استخلاصها بالقوة، مثلما فعل صالح باي ضد قبائل أولاد نايل في الجنوب، وضد أولاد عمرو بقرية النميلة قرب باتنة، فعاقبهم بقسوة، وأخذها عنوة، وأخضعهم لسلطته. [3]

---

1 - أرزقي شويتام، **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830**، دار الكتاب العربي، ط1، الجزائر، 2009، ص216.

2 - المرجع السابق، ص210.

3 - اوجين فايسات، المرجع السابق، ص ص26-29.

وكانت السلطة في بايلك الشرق، تنظم عمليات جمع الضرائب، بتنظيم محلات (فرق عسكرية) يقودها الباي أو من ينوبه، وتتجه للأقاليم، وتخوض الحروب، وتدخل في معارك دامية، وتفرض سلطتها على المناطق المتمردة. [1]

وقد نظم صالح باي محلته العسكرية إلى مقر حكم بني جلاب بوادي ريغ، التي كانت تدفع ضريبة زهيدة، منذ خضوعها للسلطة التركية في عهد الباشا صالح رايس سنة 1552، [2] ويتخللها بعض فترات من الامتناع عن دفعها، لأسباب عديدة منها:

1) بعدها عن مركز البايلك، وصعوبة وصول رجال السلطة إليه، لأنها تكلفهم أموالا، فضلا عن المخاطر الطبيعية، والمرور عبر الرمال الصحراوية.

2) ضعف البايات، وخوفهم من استعمال السلاح، والاصطدام بالرعية.

ولكن صالح باي قرر كسر هذا الهاجس، وبدأ في محاولة الصلح، ودخل في مفاوضات مع حاكم تقرت، الشيخ فرحات الجلابي،

---

1 - ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985، صص123-124.

2 - عن حملة صالح رايس أنظر: صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830**، دار هومة، ط2، الجزائر، 2007، ص74.

ولكنها أفضت إلى الحل السلبي، وحينئذ استعد الباي لتأديب الحاكم الجلابي، ونظم حملته في أكتوبر 1788، وتقدمت نحو الزاب، وجابت قراه، وواصلت طريقها إلى سيدي خليل التي تراكمت بها الثلوج، وبعد عقاب الواحات في طريقه، وصلت المحلة التركية إلى مشارف تقرت، ونصب خيامه أمامها، وحاصرها عدة أسابيع، دك أثناءها قصرها بالمدفعية، وقلع الجنود نخيل تقرت، واقسم على دكها كلية على رؤوس أهلها، ولكن الشيخ فرحات تفطن للخطر الداهم، فأمر برفع راية بيضاء فوق جامع المالكية، معلنا استسلامه، والرضا بالصلح، وحقن الدماء، وفعلا أبرم بين الطرفين، ونص على ما يلي:

1) تسدد وادي ريغ مصاريف الجيش، وتكاليف الحرب السابقة للسلطة التركية.

2) تدفع تقرت غرامة مالية قدرها 300 ألف ريال باسيطاس (قسنطيني) زيادة على ضريبة من الخيل والعبيد.

كل ذلك مقابل الحصول على عهد الأمان، وينال معه السلطان الجلابي رسم التولية حاكما على إقليم وادي ريغ، [1] التي بقيت تحتفظ بنفوذها كإمارة، مع تبعيتها سياسيا للأتراك العثمانيين. [2]

---

1 - أنظر: ناصر الدين سعيدوني، دراسات، المرجع السابق، ص62.

2 - عمار بن خروف، **العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي**، دار الأمل الجزائر، 2006، ج1، ص106.

**رابعا: إعفاء الأشراف من الضرائب:**

إن المرابطين والأشراف [1] والزهاد والمتصوفة، قاموا بدور هام في نشر الإسلام وتبليغ أحكامه في المناطق النائية والمعزولة في الجبال والصحراء، بداية من القرن 15، وكانوا عامل تمتين الأخوة، وتوحيد القبائل ولاسيما عند غياب السلطة أو ضعفها، وحينئذ تصير صلاحيات المرابط أكبر من نفوذ البايلك فضلا عن الأعيان وشيوخ القبائل. [2]

كان لرجال التصوف مكانتهم في المجتمع الجزائري، وسطوتهم في الحياة العامة، ويقف الحكام منهم على حذر، ويجمعون بين تقريبهم في أغلب الأحيان، ومعاقبة بعضهم عند ظهور ما يهدد حكمهم، ويؤلبهم عليهم، ويكون خطرهم محدقا، أو محل الريبة. وأكدت الكتابات

---

1 - **تعريف الأشراف:** تعني في بلاد المغرب الإسلامي، الانتساب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، عن طريق ابنته فاطمة الزهراء وذريتها، أو الانتساب إلى عائلات من قريش أو الصحابة، وظل الانتماء إلى الأدارسة والعلويين، والحسين بن علي، والساقية الحمراء، والمغرب الأقصى، وكلها علامة على حفظ الشرف، والانتساب إلى آل البيت وخصوصا في الجزائر منذ العهد العثماني، وكان للأشراف نقابة خاصة في الجزائر، وتتمتع بمكانة لدى رجال الدولة والمجتمع، ولا تتم مبايعة الباشا إلا بحضور النقيب إلى جانب العلماء والديوان. واستمر احترام المجتمع للأشراف خلال العهد الاستعماري، ويسعون إلى تمتين الانتماء إليهم، لارتباطه في أذهانهم بحفظ الهوية. أنظر: الشريف كمال دحومان الحسيني: **أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري**، دار الخلدونية، ط1، الجزائر، 2009، ص ص73-74.

2 - أنظر: الشريف كمال دحومان الحسيني، ص70.

الفرنسية على تأثير المرابطين، وفرض سلطتهم الروحية بفضل الكرامات التي تأخذ بألباب العوام، وتجعل السلاطين يسلمون بالأمر الواقع، ويتحببون إلى الشيوخ، ويدفعون إليهم الهدايا، ويضعون عنهم الغرامات السلطانية.

وقد ذكر فايسات عند حديثه عن الحرب الإسبانية الجزائرية في عهد صالح باي، بأن الجزائر بلد الأساطير والخرافات، وأن الإيمان الساذج أثر على الجنود، وكيف اكتفى " المرابطون المقدسون بإبادة العدو بالمعجزات وهم في خيامهم مرتدون الأسمال" وأكد على دور الشيخ سيدي أحمد الزاوي في القضاء على العدو من بعيد، وتلك معجزة، ومما ذكره: (وهكذا رأينا أن الشيخ سيدي أحمد الزواوي،[1] أحس بداهة بوصول الإسبان، وانتقل هو وأصحابه ليلا من جب (كذا) اوزفار القريب من شطاية، الذي كان يسكن فيه، إلى ضفاف الحراش بالقرب من الجزائر،... وقطّع المسيحيين إربا إربا، واندفع وهو راكب على فرسه المدعو"رقصة"، في عجج البحر الذي بهر عند رؤيته، وتجمدت مياهه تحت أقدامه، وبات يمشي هو وأصحابه على سطح هذا السائل المتجمد لمهاجمة البواخر التي بقيت في عرض

1 - **أحمد الزواوي:** أحد المرابطين الأعيان المشهورين في قسنطينة، كان يسكن في شطاية على بعد 8 كلم جنوب غرب قسنطينة، وله كلمته المسموعة عند صالح باي. انظر: اوجين فايسات، المرجع السابق، ص284.

البحر، ويجعلها تتلاطم مع بعضها مثل ما يحدث لها عندما تهب العاصفة، ويقذفها بما فيها في أعماق الهاوية). [1]

ويستطرد فايسات في ذكر كرامات هذا المرابط، والتي حدثت في ليلة واحدة، أسرى فيها، وهزم العدو وعاد إلى بلده حينما انمحى أمامه البعد المكاني، والزماني. وكان مقربا من صالح الباي، وأحد مستشاريه، ولكنه خرج عن طوعه واستقر في جبل أوزقار، وأصبح مقامه مركزا لكل الساخطين في البايلك؛ فأرسل إليه الباي محلة عسكرية تركية لتأديبه، ولكن الشيخ فر وتفرق أتباعه، وأثناء انسحابه، اعترضهم ثعبان عجز ثلاثة آلاف من أتباعه من قتله، ولكن الشيخ رفسه برجله، محققا معجزة باهرة، وقال: " لا حول ولا قوة إلا بالله ونحن عباده، والله لا أخشى أي مخلوق ولا أخاف إلا الله"، ثم أمر أتباعه بالذهاب لبيوتهم، ولكن المحلة التركية باغتت الشيخ الزواوي في بيته، وقادته مقيدا بالأغلال، ولما لاح الفجر، ظنوا أنهم اقتربوا ـ بالشيخ المكبل ـ من قسنطينة، ولكنهم وجدوا أنفسهم ـ باتوا طوال الليل ـ يطوفون حول كدية عاتي، وعادوا إلى الباي بخفي حنين، وأكدوا (أنه لا يمكنهم من الآن تجاهل السلطة الخفية) للشيخ؛ ولم يصدق الباي أولا، ثم اقتنع أمام تأكيدات قائد المحلة، وندم الباي عن فعلته، واعترف بما صدر منه، وحتى يخفف من

1 - اوجين فايسات، المرجع السابق، ص36.

غضب الشيخ المهان، أرسل له بعض الهدايا، ولكنها قدمت بعد فوات الأوان لأن الشيخ دعا عليه باللعنة الالهية الكبرى، وحقت اللعنة عليه بعد ستة أشهر، فمات صالح باي شر موته، وبقي الشيخ الزواوي منتصرا، لأن الله اخذ له بثأره. [1]

وكان الباي يقف أمام كرامات الشيوخ منزعجا وجلا، ويريد التكفير عن ذنبه السابق، ونلمس ذلك في واقعة المرابط سيدي محمد، الذي عارض الحكم، فقتله الباي أمام الملأ من قومه ليكون عبرة، ولكن جسده تحول إلى غراب حلق فوق دار التسلية، فكان سبب شؤم وتطير عند صالح باي، الذي ندم عن فعلته، وحتى يكفر عنها، بنى في مكان نزول الغراب مسجدا عليه قبة بيضاء، تخفيفا لروح ضحيته، وأطلق عليه منذ ذلك الوقت اسم سيدي محمد الغراب. [2]

ومما سبق فإن السلطة التركية، اتبعت مع المرابطين سياسة تجمع بين التأديب تارة، والتقريب تارة أخرى، لكسب ودهم، وخدمة السلطة الحاكمة:

1) منح بعض الإمتيازات للأشراف والمرابطين للحفاظ على ودهم وولائهم، لما لهم من كلمة مسموعة لدى قبائلهم، ويقومون بدور الوساطة بين القبائل الثائرة، والسلطة وتجنيب المناطق الخارجة عن سلطة البايلك، إراقة الدماء.

---

1 - المرجع السابق، صص63-64.

2 - نفسه، ص61.

2) ربط السلطة للعلاقات الوطيدة مع الشيوخ، والأشراف، بغية الحصول على حيادهم أو دعمهم أثناء الحملات على القبائل الثائرة، أو احتوائهم لصالح البايلك، واتخاذهم واسطة الاتصال مع الشعب. [1]

3) حاول صالح باي نزع النفوذ السياسي المطلق لدى بعض شيوخ الجنوب، بالحلم مرة، واستخدام الشدة والقوة في مرات أخرى، وحينئذ جردهم من السلطان الكبير على الناس، ولم تبق إلا سلطة الباي في قسنطينة ومن ورائها سلطة باشا الجزائر. [2]

والجدير بالذكر أن وثيقة الإعفاء من دفع الضرائب التي استفاد منها الشيخ عون الطرودي السوفي، فيها كسب لود الشيخ، وتحييد له، وإسكات لصوته، وتمييزه عن العامة الذين يرهقون بدفع الضرائب المخزنية، والغرض هو التدجين من جهة، وإحداث القطيعة بين الشيخ والمجتمع، الذي يعتبره أحد خدام السلطة المدافعين عنها.

**ـ الخلاصة:**

عملت السلطة التركية في مقاطعات ايالة الجزائر المترامية الأطراف، على إخضاع الرعية بشتى الطرق والأساليب، وإتباع سياسة الحزم والشدة في الغالب الأعم، ومن خلال دراسة التحرير السلطاني الذي حرر الشريف سيدي عون، يمكن الوقوف عند

---

1 - أنظر: أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص ص250-251. الشريف كمال دحومان الحسيني، المرجع السابق، ص83.

2 - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص139.

دلالات السياسة المتبعة من السلطة، والسلوك العام للرعية في إقليم الشرق الجزائري:

ـ دأبت السلطة في بايلك الشرق على عهد صالح باي على تقريب الأشراف، وشيوخ الزهد والتصوف، والاستفادة منهم لصالح البايلك، ولكنه يضرب بيد من حديد على كل من يتمرد منهم، مثلما وقع لبعض الشيوخ، ومنهم سيدي محمد الغراب، والشيخ أحمد الزواوي، ولكن كراماتهم، ومحبتهم لدى الرعية، نبهت صالح باي لرد الاعتبار لهم، وأخذ العبرة مع غيرهم من الشيوخ وعلى رأسهم الشيخ سيدي عون السوفي الذي ذكر في الوثيقة، واستفاد من الإعفاء المشهور في وادي سوف، ولكنه في أواخر عهد صالح باي.

ـ تأثر رجال السلطة المحلية في وادي ريغ بمراسيم الإعفاء، واختاروا فئة من الشيوخ، ومنحوهم تحريرا يعفيهم من دفع جميع الغرامات المخزنية، مثل الإعفاء الذي منحه السلطان الجلابي لأولاد سيدي مسلم التاغزوتي السوفي سنة 1256هـ/1840م، [1] وجاء في أواخر أيام السلطنة الجلابية، ولكن بقية السكان تؤخذ منهم الغرامات المجحفة عنوة، وبعد سيلان الدماء، وتخريب المنشآت، وقلع النخيل.[2]

1 – محمد الطاهر التليلي، **الفوائد المنثورة من المطالعات المبتورة**، مخطوط، ص78.

2 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، صص212- 219.

ـ الأصل في سيرة الأشراف، هو الورع، والامتناع عن المكاسب التي تدرها السلطة، لأن آل البيت لا يأخذون الصدقة، ويجاهدون مع قومهم، وإعفائهم من الغرامة دون الرعية - المحبة لهم - فيه تمييز يخدم السلاطين، ولكنه يحرم الرعية من وقوف الشيوخ للدفاع عن قومهم.

ـ إن الضرائب التي تسعى سلطة البايلك لجمعها، وتجريد المحلات، وانفاق المال، فيها إجحاف في حق الرعية، لأن السلطة غائبة عن الأقاليم، ولا تعرفها بالرعاية العلمية أو الاقتصادية، ولا تسهر على تنظيمها، فلا يكون للغرامات ضرورة، لأنها لا تساهم في تطوير الإقليم، بل تخدم مصالح السلطة الحاكمة فقط.

ويبقى لهذا التحرير السلطاني، أو مرسوم الإعفاء نموذجا تنظيميا، ووثيقة تاريخية هامة، يستلهم منها الدارس جوانب عديدة عن العلاقة بين الراعي والرعية ولاسيما في المناطق النائية، والفيافي الرملية، ووادي سوف كشفت عن ملامح للعلاقة التي ربطها الزاهد سيدي عون، ودامت من بعده، لمدة ما بين 1791 إلى 1860م، عندما عممت للأشراف من سكان أولاد اسعود في عرش الرجل الصالح، واستمرت إلى دخول السلطة الفرنسية، وتعاملت بنفس الأسلوب لكسب الفئات المؤثرة على الأهالي.

# ملامح مجتمع وادي ريغ
# من خلال تاريخ محمد العدواني

**تمهيد:**

تزخر الأقاليم الصحراوية بتاريخ عريق، غيبته ذاكرة النسيان، وضاعت أحداثه ووقائعه على مر الزمان، بتفريط الأهل والخلان؛ وحينئذ فُسِحَ المجال للثقافة الشعبية أن تنسج حول العمران البشري القصص والأساطير التي تختلط مع الخرافات، ويوجهها الفكر الساذج البسيط، ويعلل أسبابها، وتصير تلك الأخبار الوحيدة في الميدان، لقلة الوثائق وندرتها، أو ضياعها، والسبب هو إحجام سكان الأقاليم عن التدوين والكتابة، نظرا لتفشي ظاهرة الأمية، وانتشار الجهل، واستخفاف المجتمع بالتدوين والتوثيق.

ويعتبر كتاب العدواني من أهم الوثائق التاريخية النادرة التي أرخ بها للصحراء الجزائرية ولاسيما إقليمي وادي سوف، ووادي ريغ، وتعرض – في كتابه- لتعمير المنطقة الصحراوية، وذكر بعض الأسباب والملابسات عن السكان وصفاتهم، والقبائل التي أثرت في التطور العمراني، والدول التي حكمت، وخصوصا نشأة الحكم المريني الذي عرف بسلطنة بني جلاب. وكان للعدواني رأي يخالف به روايات أخرى، فضلا عن إشارات عابرة عن الناحية الاقتصادية، وتعامل السكان مع وادي سوف من خلال المراعي، وبيع بعض المواد

كالصوف. ودور المرأة في صناعته في تلك الأثناء في المجتمعات المتجاورة. كما أبرز هذا التاريخ دور المرأة في مجتمع وادي ريغ، وتأثيرها في الحياة السياسية، وإدارة الصراع بحكمة حين تدخلت زينب بنت تندلة الريغية، ورأبت الصدع بين قبيلتي عدوان وطرود بوادي سوف، مما يدل على المكانة التي تبوأتها المرأة رغم بساطة المجتمع، وانتشار الجهل، ولكن الدين كان حاضرا، ومن خلال قيمه تمت تلك المصالحة التاريخية. كما أشار العدواني إلى دور دعاة الطريقة الشابية وتنقلهم إلى وادي ريغ، ولا شك أنهم ساهموا في توسيع حركة بناء المساجد مثلما فعلوا في مجتمع وادي سوف سابقا، وخصوصا خلال القرن السادس عشر الميلادي.

ويبقى تاريخ العدواني ثريا بمعلوماته حول مناطق الجنوب الشرقي الجزائري، وتحتاج أخباره إلى البحث المستفيض، لأن رواياته بمثابة المادة الخام، التي تحفز الباحث إلى النظر فيها مليا، وتمحيص الوقائع وربطها بالوثائق الأخرى، ويمكن الاستفادة منها جميعا للمساهمة في كتابة تاريخ وادي ريغ.

**1) التعريف بتاريخ العدواني:**

تاريخ العدواني، كتاب في التاريخ العام، ينسب إلى الشيخ محمد العدواني، أحد علماء وادي سوف، وعاش ما بين 1133-1207هـ الموافق 1720-1792م، وهو من أهل القرن 18م، وينسب إليه

مسجد الزقم بوادي سوف، وحمل اسمه تبركا من أهل بلدته، والشيخ محمد العدواني مؤرخ سوف الأول، ورجل رحالة، تعدت شهرته بلاد المغرب قاطبة، وله كتابه المشهور في التاريخ والذي حقق من طرف الدكتور أبو القاسم سعد الله تحت عنوان " تاريخ العدواني" وطبع من طرف دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1996، ونظرا للعدد الكبير من نسخ المخطوط، تنازع النساخ في نسب العدواني، فكل جهة وصلها الشيخ العدواني الرحالة إلا ونسبته إلى أرضها، تريد بذلك الشرف، لمكانة العدواني التاريخية، وقد صَدَّرَ المحقق الكتاب في غلافه بالعبارات التالية:

(كتاب في أخبار هجرة واستقرار بعض القبائل العربية مع ذكر الأحوال والتقلبات السياسية والاجتماعية لمنطقة المغرب العربي وأصول بعض المدن والقرى، والعلاقات الروحية بين المشرق والمغرب منذ الفتح الإسلامي).

وقيل في نسبه: هو محمد بن محمد بن عمر القسنطيني، وقيل هو محمد بن محمد بن عمر القسطيلي نسبة إلى قسطيلة ببلاد الجريد التونسية،[1] ولكن النسخة الهامة التي يمتلكها السيد أحمد خراز رفعت نسبته إلى بلدة الزقم، فهو محمد بن محمد بن عمر العدواني الرحماني السوفي اللجي

1 - أنظر: مقدمة المحقق، أبو القاسم سعد الله، **تاريخ العدواني**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996، ص17.

دفين الزقم. [1] وقد قيل إن العدواني في هذه المسألة يشبه العلامة ابن خلدون، فتاريخه المشهور، وتنقله بين الدول، وإقامته في العديد من المدن، جعل تلك الشعوب تتشرف بنسبته إليها.

وقد قيم الدكتور أبو القاسم سعد الله ثقافة العدواني من خلال كتابه فقال: (تُظهر كتابات العدواني ثقافة واسعة بالنسبة لعصره، فهو يحفظ القرآن الكريم ويستدل بآياته في عدة مناسبات، وهو يحفظ الأخبار ويروي الطرائف، وله رصيد لغوي قوي، وأمثال شعبية كثيرة، أما ثقافته الصوفية فتظهر من حديثه عن الشابية وشيوخ القادرية ورحلاته الخيالية التي نسميها اليوم خرافات وكرامات). [2]

وتاريخ محمد العدواني له قيمته لمن درسه بتريث، لأنه يحتوي على مادة خام، وإشارات كتبت بلغة القرن 17 الميلادي، فلا يمكن تجاهل عصر العدواني الذي تداولت الصحراء نسخ تاريخه في وقت غابت الأخبار، ولا شك أن النساخ تصرفوا في معلوماته حذفا وإضافة وتحويرا بما يخدمهم، أو حسب فهمهم للكلمات المنسوخة بالأيدي المتعددة.

**2) عمران وسكان وادي ريغ عند العدواني:**

وادي ريغ إقليم يقع في الجنوب الشرقي الصحراوي الجزائري،

---

1 - أنظر: مخطوط العدواني، نسخة أحمد خراز، غلاف المخطوط، لدي نسخة منه.

2 - نفسه، ص21.

عاصمته مدينة تقرت، وتمتد أراضيه في منخفض مستطيل الشكل، طوله حوالي 160 كلم، يبتدئ من الشمال من عين الصفراء قرب بلدة أم الطيور، وينتهي جنوبا عند قرية قوق المحاذية لبلدة عمر، ويتراوح عرضه ما بين 30-40 كلم، وهو يجاور إقليم وادي سوف التاريخي في الناحية الشرقية. [1] وما ورد من أخبار عن هذا الإقليم في كتاب العدواني:

**أ) ـ تسمية وادي ريغ:**

ورد في حوار راوي العدواني، ويدعى صفوان، أخبارا وحديثا عن تسمية وادي ريغ، بقوله:

(ثم قلت له: أخبرني عن واد ريغ، لما سمي ريغ؟ وعن مسكنه؟ قال لي: يا سيدي ريغ اسم رجل يقال له باهوت بن شملخ بن كعب بن غاوية، من ولد أندلس بن يافث بن نوح، على نبينا وعليه الصلاة والسلام). [2]وما ذكره ابن خلدون، أن الإقليم نسبة إلى بني ريغة، وهي قبيلة من بطون مغراوة البربرية. [3]

**ب) ـ عمران وادي ريغ:**

ذكر العدواني في تاريخه بعض المواضع في إقليم وادي ريغ،

---

1 - أنظر: عبد الحميد إبراهيم قادري: المرجع السابق، ص1.

2 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص138.

3 - ابن خلدون، العبر، دار الفكر، 2000، ج7، ص33.

وتعرض إلى سبب تسميتها، أو قصة تأسيسها، وقد ارتبط بعضها بالجانب الأسطوري، ولا يمكن قبولها في أكثر الأحيان إلا بقرائن تاريخية تؤيدها، ولكن الدارس لهذا التاريخ يجعلها منطلقا، لعلها تفتح له نوافذ جديدة، وتلفت انتباهه إلى خفايا، تساعده على الوصول إلى الحقيقة التي يبحث عنها. ومن تلك الأخبار يمكن معرفة قدم وعراقة تلك المواقع، ويكفي أن العدواني من أهل القرن 18م:

**- بلدة المغير:**

ذكر العدواني أن الذي سماها هو عقبة بن نافع أثناء فتحه للمنطقة، فلما مر بها ونام ليلا مع جنده في ترابها، وجدوا في الصباح أن سيوفهم قد أصابها الصدأ بسبب الماء أو الرطوبة، فقال سموها المغير لأنه رأى الأحوال فيها تتغير، قال العدواني في حديثه عن مسيرة عقبة:

(ثم ارتحلوا قاصدين المغير، حتى نزلوا عليه ثم باتوا به، فلما أصبح الله بخير الصباح وجدوا سيوفهم قد لصقها الصداد، قال عقبة: سموا هذا الموضع بالمغير). [1] وإذا صحت الرواية، تكون المغير من أقدم المواقع بهذا الإقليم، وترجع تسميتها إلى القرن الأول الهجري في حدود 63هـ الموافق 682م.

**- بلدة وغلانة:**

ذكر العدواني أنها كانت بلدا للرهبان النصارى، ومنها هاجر ثلاثة

1 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص299.

رهبان إلى شمال سوف، وبنوا قصورا يتعبدون فيها. [1] كما ربطها العدواني بقصة فرعون، وهو الذي بناها بالصخر، فقال العدواني:

(... وصاحب مدينة وغلان، وبناها فرعون بالصخر، وجعل أعمدتها من النحاس، وساق لها نهرا من مجردة[2] أحلى من العسل، وغرس فيها النخيل، وجمع لها الجموع من النواحي، فكان فيها ثلاثمائة زقاق، وفي كل زقاق أربعون حومة، وفي كل حومة أربعة آلاف فارس، وجعل لها قوت ستة سنين، ما يفارقها. واحتاجت الناس إليها من جميع الآفاق، وصرف السوق إليها، وبقت على ذلك مدينة قاهرة، [3] حتى تجار مصر يأتونها، وبنى لنفسه قصرا من الزجاج الأخضر، وبنى لفرعون الصغير قصرا له أربعون بيتا، عشرة من الرخام الغالي، وعشرة من الزجاج الأحمر، وعشرة من الزجاج الأبيض، وعشرة من الزجاج الأخضر، وبقي على ذلك مدة مائتين سنة). [4]

---

1 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص91.

2 - **نهر مجردة:** نهر في تونس طوله 415 كلم، ينبع من الجزائر، ويروي منطقة جندوبة في الشمال الغربي التونسي، ويصب في خليج تونس.

3 - **مدينة قاهرة:** حصينة، ومستعصية على الغزاة. ولعل النساخ نسجوا هذا، حتى يكون ملائما لقاهرة المعز الفاطمية في مصر، ولكنها لا تمت بصلة لتاريخ الفراعنة.

4 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص275.

وتدخل الأسطورة إبليس، الذي قتل فرعون الأكبر، وشجع تلمسان [1] فغزا وغلانة، ودمرها، وحمل صخرها وأعمدتها، على ظهور الإبل وتركها خالية، وقتل من أهلها ثلاثة وأربعون ألف ثم رجع إلى بلدته تلمسان، ولكن زوجة فرعون ولدت فرعون الأصغر، الذي أخبره إبليس بحال والده، بعد الاحتلام، وبدأ يتنقل، فأتى سوف، ثم استقر مدة عشرين سنة في نفزاوة التونسية، وأخيرا أتى مصر واستوطنها، وحكم القبط وبني إسرائيل من سكانها. [2]

**ـ بلدة تمرنة:**

تحدث عنها العدواني، (وهي عنده واد ريغ)، وزمنها، عندما توفي شيخ طرود بالنازية شمال وادي سوف، ويومها كانت العلاقة وطيدة بين سكان سوف ووادي ريغ، فكانوا يلتقون في المراعي، ويومها مات لأهل تمرن رئيسهم، وتسبب ذلك في أزمة قيادة، ثم تمكنوا من تولية رجل يدعى إبراهيم بن عبد القادر، بقي يحكم البلدة إلى آخر حياته. يقول العدواني:

(قال الراوي: فمات صاحب تمرنا، وأشكل على أهل واد ريغ من يولوا، فاخترنا رجلا اسمه إبراهيم بن عبد القادر وولیناه، فبقيت الولاية

---

1 - **تلمسان:** يوردها العدواني اسم حاكم، واسم مدينته هي تلمسان.

2 - محمد العدواني، المرجع السابق، صص277- 278.

لنا إلى أن مات هذا). [1]

ويشير العدواني إلى أن عاصمة الإقليم هي تمرنة، قال العدواني: (قال: قلت: أخبرونا أن مدينتهم يقال لها تمرن، وكان واليها من تونس). [2]

والجدير بالذكر أن تمرنة تأسست في القرن الرابع الهجري قبل حي القصبة بـ 40 سنة، وأصل سكانها برابرة عربهم الإسلام وتم اختلاطهم ببعض الوافدين العرب المشارقة قبل أن تنشأ تمرنة الحالية، وشهدت ميلاد عدة قرى اضمحلت وتلخصت في الأخير تحت اسم تمرنة القديمة. بداية من أوتيكا وهي كلمة بربرية بمعنى البلاد القديمة وهي بلاد تقع بين قريتي تمرنه الجديدة وتمرنة القديمة، اضمحلت بعد أن دفنتها الرمال، وهجرها السكان. وعموما تقع تمرنة في الجنوب الشرقي الجزائري، وهي حاليا تابعة لبلدية سيدي عمران ولاية الوادي. بنيت البلدة على هضبة غمرتها في القديم مياه وادي الرتم وجزأتها إلى قسمين، وبنيت وسط واحة من النخيل، وهذا ما ترك أمر ترميمها أو توسيعها مستحيلا حفاظا على الثروة النباتية التي تعتبر مصدر عيش للسكان الفلاحين. [3]

---

1 - محمد العدواني، المرجع السابق، صص108.

2 - نفسه، ص138.

3 - وكيبيديا الموسوعة الحرة. يوم 2001/10/1.

**ج) ـ سكان وادي ريغ وحكامها:**

ذكر العدواني أنهم من اللمامشة، هرب أحد عبيدهم حين هاجموهم العدايسة. قال العدواني: (قلت له: أخبرني عن أهل واد ريغ، ممن هم؟ قال لي: عبدا للمامشة، هرب حين أخذوهم العدايسي). [1]

ذكر العدواني جزء منها، وهو بلدة تمرنة، وكان حاكم المنطقة من تونس، وتولاها بعدهم العدايسية،[2] ثم الأتراك. وأضاف العدواني: (قال: قلت: أَخبرُونَا أن مدينتهم يقال لها تمرن، وكان واليها من تونس. قال لي: نعم يا سيدي، وذلك قبل ولاية الترك في قصر طينة،[3] قلت له: أكان قبل الترك ولاية غيرهم؟ قال: نعم، كان أعداس قد ترك فيها أربعين ولدا وأربعين أميرا، وهم الذين يسمون بالعدايسية، ثم خلفت الترك ولايتهم ففكوها إلى صاحب تونس، وبقت تحت صاحب اقسنطينة). [4]

---

1 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص303.

2 - **العدايسة:** ذكر العدواني نسبهم، وهم أبناء العديس بن نون، بن ماردس، بن مساعد بن نصر، بن أبي بكر؛ ويسرد نسبهم حتى ينتهي به إلى سيدنا عثمان بن عفان، فهم من الأشراف. أنظر: محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص303-304.

3 - يعني بلدة قسنطينة.

4 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص138.

وبنو أداسة من هوارة، ذكر المؤرخ الفرنسي E Mercier أن بني أداسة أو الأدايسية، أو بنو عداس أو العدايسية، المشهورون، والمعروفون في كامل التراب التونسي وشرق الجزائر، بأنهم قوم دهاة ماكرون مخادعون فاسدون غشاشون، مهربون بحيث أن رجلا واحدا منهم يمكنه خلق قرية خيالية.

وللرد على "مرسي"، أن أداسة غير عدايسية، وبنو عداس هم الذين كانوا يأتون من تونس إلى قبائل عمالة قسنطينة، ويحترفون مهنة الوشم، وهم يشبهون إلى حد ما الغجر البوهيميين في تشيكوسلوفاكيا. [1]

**3) دولة بني جلاب في وادي ريغ (تقرت وتماسين) :**

ينتسبون إلى بني مرين، ومؤسس السلطنة هو الشيخ الحاج سليمان بن رجب المريني الجلابي، الذي قدم من فاس المغربية، وكان ثريا، ولما أصابت الناس ذائقة مالية، وخاف الشيخ محمد بن يحي على استغلال السكان من طرف اليهود، فتشاور مع الصالحين والعلماء، ثم عرض على سليمان بن رجب أن يتنازل عن الديون المترتبة على السكان، مقابل توليته على حكم الإقليم، خلفا لبني يوسف الدواودة، فقبل العرض، وحينئذ نشأت إمارة (سلطنه) بني جلاب التي دامت ما بين 1414-1854، وهذه الرواية القريبة إلى الحقيقة، ورويت أسطورة أخرى، ذكرت التنازع بين سكان تقرت، فاتفقوا على تولية

1 - أنظر: هوارة وبطونها العربية والأمازيغية، منتدى الجلفة، يوم 2001/10/1.

أول داخل للبلدة، فدخلها أعرابي من الصحراء يقود قطيعه، فولوه أمرهم، وعرف بالجلابي نسبة للقطيع الذي يعرف بالجلب. ويرى الطاهر بن دومة أن تأسيس السلطنة تم في 837هـ/1531م من طرف أحمد الجلابي الذي سلمه المدينة الرجل الصالح سيدي محمد بن يحي، وحينئذ قسم السلطة بين ولديه، فجعل محمد في تقرت، وإبراهيم في تماسين. [1]

وذكر العدواني أن سليمان الجلابي أقرض السكان ولما عجزوا استعبدهم، ثم أعتقهم شفقة ورحمة.

قال العدواني: (قلت له: ما معنى تقرت وتماسين؟ قال لي: يا سيدي، أتى رجل من واد مرين، قد كان مسكنه بفاس... قد كان كل عام يحج إلى بيت الله الحرام، فكان يأتي إلى واد ريغ ليبيع ما

1 - المراجع: محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص139-141. الشيخ محمد الطاهر بن دومة: مذكرة أخبار تاريخية لواحة تقرت وبعض ضواحيها ، ص9. عبد الحميد إبراهيم قادري: المرجع السابق، ص ص14- 15. عبد القادر بوباية: " قيام حكم بني جلاب بوادي ريغ"، ضمن مدونة الملتقى التاريخي الثالث المنعقد بمقر متحف المجاهد بتقرت من طرف الجمعية التاريخية الوفاء للشهيد بتقرت، أفريل 1998، ص ص32-36. معاذ عمراني: أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ميلاديين، رسالة ماجستير، مرقونة وغير منشورة، تحت إشراف الدكتورة فاطمة الزهراء قشي، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، نوقشت في 9 أفريل 2003، ص ص26-27.

فضل من حجه، وهكذا حتى أتوه أهل الواد،[1] فقالوا له: يا سيدنا لو سكنت بقربنا كان خيرا لنا ولك، قال لهم نعم. قال الراوي: فانطلق إلى فاس، وأتى بأهله وماله حتى نزل بالواد. قال الراوي: وكان له امرأتان فجعل إحداهما في تقرت، لأنها موضع خربة، كان فيها على عهد خيار، ووضع الأخرى في اتماسين موضع قرية خربت على عهد ورقل الأكبر، وبنى لهما قصران، وكان له ثمانون عبدا، فجعل مع كل امرأة أربعين عبدا، وكل عبد لا يصل موضع الأخرى، وكان اسم واحدة منهن اسمها بدرة، والأخرى بدرية، وكانت واحدة منهن بنت مولاي سعيد الشريف الذي ضربه بن العافية على أم رأسه وعلم أنه لا يعيش، والأخرى بنت فلياش صاحب مكناس، الولي. قلت له: وأي حاجة يصنعونها؟ قال لي: يا سيدي، كل عام يعين أربعين عبدا إلى هذه وعشرون إلى الأخرى كذلك. قال، قلت له: لما سميت تقرت واتماسين بهذا الأسماء؟ قال لي: سيدي، هذا اسم عجمي، ولا أدري، وبقيا على ذلك). [2]

**ـ استعباد سكان واد ريغ وتحريرهم:**

(ثم داين أهل الواد، أي واد ريغ، حتى أتاهم عام خمسة وثلاثون

---

1 - المقصود به وادي ريغ.

2 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص139-140.

وسبعمائة قحط،[1] أي شر كبير، فصار الرجل يأخذ ابنه أو بنته ويبيعاه له، فاشترى منهما ألفا وخمسمائة نفسا، ثم صار الرجل يأتي بزوجته ويبيعها ويخرجها من رقبته ويشريها منه، حتى تم أبناءهم وبناتهم وأزواجهم، ثم اشترى منهم جميع ما عندهم من النخيل والأثاث والسواني، ولم يكن عندهم يومئذ إلا رقابهم، فصار الرجل يبيع نفسه فاشترى منهم أنفسهم. فلما تم شراؤهم، فقال لهم يوما: يا معشر القوم ما عليكم، غدوة ـ إن شاء الله ـ عولت على السفر بكم لكي أبيعكم بحقكم قماش من قماش بحر اسويس.[2] قالوا: أهلا وسهلا، ولا يفك المملوك نفسه من مالكه. فلما كان من الغد، رجوا أن يسافر بهم، فلم يسافر، ثم أتاهم وقال: لا نسافر حتى تبنوا لي مسجدا، فبنوا له مسجدا. وأقام به غاية، ثم جعل له إماما راتبا وصاحب قراية فيه، فلما تم بناؤه قال لهم: إني أريد منكم ـ يا معشر ممالكي ـ ما نراعيه عندكم أن أعتقكم لوجه الله تعالى، قالوا: سمعنا وأطعنا. ثم قال: نشهد

---

1 - ذكر العدواني أن القحط وقع سنة 735هـ وهو تاريخ يوافق 1334، وهو تاريخ بعيد عن نشأة الحكم الجلابي، وما ذكره الطاهر بن دومة هو الأرجح، 1531م، الموافق938هـ، وهو يتماشى مع ما ذكره الحسن الوزان في وصف إفريقيا، وقد زار تقرت في القرن 16م، ولم يجد حكامها من الجلالبة بل ذكر أنهم من تونس. أنظر: الحسن الوزان: **وصف افريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، ط2، بيروت، 1983، ج2، ص136. معاذ عمراني، المرجع السابق، ص ص29-33.

2 - يعني بذلك انتقاله إلى مصر، وكانت طريق مسيره نحو الحج كمحطة تجارية.

الله والملائكة ورسله، فاني أعتقكم لوجه الله خالصا، فقبلوا العتقة. ثم قالوا: نحن نولوك على رقابنا أبد الآبدين، قال: قبلت. وتم أمره وعمله على ذلك). [1]

**4) ـ أهمية وادي ريغ الاقتصادية:**

كان سكان وادي سوف يتخذونها مرعى لأنعامهم في فصل الربيع، قال العدواني: (قال الراوي: وبقينا في البلاد: الشتاء بأرض النازية، والربيع بواد ريغ، والصيف بالزاب، والخريف بأرض الجريد، وهكذا). [2]وكان سكان سوف يستوردون فسائل النخيل، والصوف الذي تنسج منه نساؤهم الملابس الصوفية، ومما ذكره العدواني: (ونحن نزلنا أرضا خالية ما بين ثلاثة أوطان: الزاب للطعام، والجريد للتمر، ووادي ريغ للصوف، قلت له : أتصنع نساؤكم الصوف؟ قال لي: نعم). [3]

**5 ـ دور المرأة في مجتمع وادي ريغ:**

تمتعت المرأة الريغية بمكانتها، وكان لها دورها الاجتماعي والديني، ولعبت أدوارا سياسية قلما بلغها الرجال في عصرها، ومنهن:

---

1 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص140-141.

2 - نفسه، ص108.

3 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص147.

**-زينب بنت تندلة:**

وهي امرأة صالحة، وولية لله عابدة، ذات رأي وحكمة ومشورة، تحسن استقبال ضيوفها، وتكرمهم أحسن إكرام، وتدعو لهم بالرزق الحسن، ومن يعتدي على حرمة دارها، فله الخزي والوبال، ونلمس ذلك في قصة من قصد دارها من سكان وادي سوف، عند لجوئهم إلى بلدتها، والمعتدي منهم يدعى " غنام". كما ورد في خبر العدواني، على لسان الراوي من بني قومه. قال العدواني:

(وبتنا عند الولية الصالحة زينب بت تندلة، ودخلنا بيتها، كلما وجدنا فيها من الطعام والتمر أكلناه. فلما شعرت بنا أتت إلينا مغضبة وقالت: يا قوم! من أخذ لنا شيئا من غير الطعام والتمر فليرده إلي. فردوا لها ما أخذوه منها إلا غنام بقيت عنده سقاء ماء،[1] فلحوا عليه فلم يردها لها. ثم قالت: أما من أخذ مالي ورده إليَّ يجعل الله له رزقا في هذا الواد بحرمتي، ومن أخذ مالي ولم يرده إلي فيجعله خديما لي ولأهل هذا الواد). [2] وقدمت لهم المرأة الصالحة خطة طريق في الصلح، وتقوم على الأخلاق التالية:

---

1 - **سقاء الماء:** هي القربة، وهي الآنية الأساسية في البيت، وتعتبر ثروة هامة في وقتها، وترتبط بضمان العيش، فالشراب يكون منها وحدها، وضرورتها في البيت مثل الهواء للإنسان.

2 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص101.

أولا: العفو عن خصومهم من طرود: والنظر إلى المستقبل، فإن حسن التدبير يجعل أبناءهم منهم، وينتمون إلى قبيلتهم بالتزاوج والمصاهرة، ومما ذكره صفوان في روايته: (قال صفوان: ثم أتينا راجعين بعدما أمرتنا الولية [ يعني زينب بنت تندلة] بالرجوع والعفو عمن بقي، فأجبناهم لذلك، ثم قالت لنا: لو تقبلوا كلامي ونصيحتي أن تحملوا بقية الذراري والنساء والشيوخ إلى وطنهم، ويكونوا لكم عونا على عدوكم، لأنهم إذا كبروا لم يعرفوا أحدا غيركم، وإذا لم يعرفوا أحد غيركم صاروا منكم، وتزوجوا بناتهم. قالوا هذا هو الرأي. ثم أثنوا راجعين إلى القصور، بعد أن جمعوا الإبل والأسلاب...). [1]

ثانيا: الإحسان في أعمالهم: ولم تودعهم زينب بنت تندلة، إلا بعد نصيحتهم بالتمسك بحبل الإحسان، وربطته بإحسان الله للعبد، وكيف رتبت عملا عن آخر، ففي السياق مثل قول الله تعالى عن أدب المجالس: (فافسحوا يفسح الله لكم) [2] وفي المعنى مثل قوله تعالى، واعدا المحسنين بالإحسان، في قوله تعالى: (وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا). [3] ومما ورد في كلامها على لسان الراوي في تاريخ العدواني:

---

1 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص102.

2 - سورة المجادلة، الآية 11.

3 - سورة الكهف، الآية 18.

(قال الراوي: ثم ودعتهم وقالت لهم: يا قوم أحسنوا يحسن الله لكم فاليوم صاروا في حماكم، وأنا المراقبة عليهم، فان قبلتم قولي ونصيحتي فنطلب الله أن يجعل ولاية واد ريغ على يديكم وتكون لكم الحرمة والاحترام ولا يولي عليكم ظالما تخاف منه وتكونوا أرزاقكم ومعيشتكم أكثرها من هذه الدار. قالوا ننكروا الولاية التي تضيق علينا فقالت لهم: اشهدوا علي، لا يجعل واليا ولا أميرا عليكم ولا منكم إلى يوم القيامة. ثم حملوا النساء والصبيان ورجعوا إلى قصور عدوان).[1]

ويتضح من هذا النص قدرة المرأة الصالحة في تقديم النصح، وإدارة الصلح، وهي من أفضل الأعمال وأجلها في الشريعة الإسلامية.

**6) ـ دور دعـاة الشابية في وادي ريغ:**

ورد الحديث بإسهاب عن دور أتباع الشابية، وعلماء الطريقة الصوفية ذات الأصل التونسي ولاسيما سيدي عرفة الشابي، وسيدي المسعود، ودورهما في تصحيح العقائد في وادي سوف، والدعوة إلى التوسع في تشييد المساجد، ومازالت تحمل أسماءهم ولاسيما سيدي المسعود الشابي،[2] ودور ابنه علي بن مسعود، الذي ذكر العدواني

---

1 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص102.

2 - سيدي المسعود: هو المسعود بن محمد بن الشابي بن عبد اللطيف، ويرتفع نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود، كان رجل علم وتقوى، وقد خرج يدعوا إلى الله في الصحراء،=

كيف سار على نهج والده في وادي سوف، ويرجع له الفضل في تشييد بعض مساجد سوف،[1] ورحل لنفس المهمة في وادي ريغ. ومما ورد صراحة في تاريخ العدواني قوله:

(قال الراوي: ثم انتقل قاصدا إلى واد ريغ، تأتي قصته ـ إن شاء الله).[2]وهنا توقف تاريخ العدواني ولم يَحْكِ قصة الشابية، وضاع معها تاريخهم ودورهم في الجانب الديني، ولكن النبذة التاريخية التي بسطها حقي محمد السايح التجاني التماسيني في ورقاته، قال: (كان بناء مسجد سيدي عبد الله المغرواي بتماسين سنة 817 هجرية،[3] وذلك على يد محمد بن الحاج الفاسي). [4]

---

ووصل إلى سوف والتقى بالفضلاء، وتعاون معهم في بناء المساجد، ونشر الخير، وظل يتردد على الصحراء منذ أواخر القرن العاشر الهجري، السابع عشر الميلادي، ولا يستبعد رحيله إلى وادي ريغ لنفس المهمة الدعوية، ونشر آداب الطريقة الشابية. المراجع: محمد العدواني، المرجع السابق، صص110-128. إبراهيم العوامر، الصروف، ص ص 192-194.

1 - المساجد التي ساهم في تشييدها علي بن مسعود الشابي، هي مسجد سيدي المسعود الشابي في الوادي، وهو مسجد الوادي العتيق، وآخر في مدينة قمار وهو مسجد سيدي المسعود العتيق، وكلاهما شيدت فيما بين سنتي 1530-1600.

2 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص132.

3 - وهو يوافق سنة 1414م.

4 - **المعمار الصحراوي:** نظرا للعلاقة الروحية، والتواصل الاجتماعي للمهاجرين من بلاد المغرب، فقد نقلوا معهم الطابع المغربي في البناء، ويشيد بذلك الرحالة المغربي العياشي عند زيارته لتماسين، في القرن السابع عشر الميلادي، (1663م) فيذكر في رحلته "ماء الموائد " قائلا: (ورحلنا إلى تماسين وهي بلدة كثيرة العمارة والنخيل، وأميرها ابن عم أمراء =

ومما ذكره عن الأعراب الذين قدموا لوادي ريغ: (لقد تداولت على هذه الواحة دول حسب وقتها وظرفها:

أولا: أعراب من ناحية الجريد بالمملكة التونسية أتوا من صحراء قابس ومن طرابلس يقصدون المصيف في الرمال وبصحبتهم الشيخ خليفة وابنه الشيخ مسعود والشيخ بوناب ونشروا الدين نشرا جميلا وإلى الآن يقال للمسجد الجامع لاجتماع الناس به، وتأسس جامع سيدي المسعود بوادي سوف والذين أسسوه من الشابية وهم من ذرية عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل). [1]

وبما أن التحقيق السابق يجعل الحكم الجلابي في حدود 1530، فإن الجلابي الأول أمرهم ببناء المسجد، وربما يكون الجامع الكبير بحي مستاوة بتقرت،[2] وهو الزمن الذي شهد حركة الشابيين حسب رواية العدواني.

---

= تقرت وهو كالمستقل في بلده وأجزل ضيافة الحجاج، وفي مسجدهم صومعة وثيقة البناء طويلة جدا فيها نحو مائة درجة على بابها اسم صانعها وهو المعلم أحمد بن محمد الفاسي وتاريخ بنائها سنة سبع عشرة وثمانمائة" أنظر: مولاي بلحميسي: **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص89. الشيخ محمد الطاهر بن دومة: المرجع السابق، ص14.

1 - أنظر: سالمي مصطفى: **الدر المصفى**، جمع وتحقيق، علي غنابزية، مخطوط، ص33.

2 - أنظر: معاذ عمراني المرجع السابق، ص21. عبد الحميد قادري، المرجع السابق، ص48.

**الخلاصة:**

لقد تناول تاريخ العدواني شذرات متفرقة من تاريخ وادي ريغ، ولكن التركيب التاريخي، والترتيب والملاءمة بين العناصر المتشابهة، يجعل تاريخ وادي ريغ في كتاب العدواني واضحا، وما يمكن ذكره من نتائج، يستأنس بها الباحث، ويستند إليها الدارس، ويبدأ التحقيق التاريخ منطلقه، مما وصل إليه هذا الرصد الأولي:

ـ يحدد تاريخ العدواني بشكل تقريبي زمن بعض الحوادث التاريخية، وتعمير القرى القديمة، ومن خلاله يمكن مقارنتها مع غيرها من الشواهد التاريخية.

ـ يعلمنا تاريخ العدواني كيف نهتم بالتسميات، وأصول السكان والقبائل التي مرت بوادي ريغ، ومنها ريغة، واللمامشة، والعدايسة، وبني جلاب، وغيرهم من العناصر السكانية القديمة التي تركت أثرها في المنطقة.

ـ يلفت الانتباه إلى المناطق القديمة، ويبرز عراقتها في التاريخ؛ مثل بلدة المغير التي أظهر أن لها صلة بتاريخ عقبة بن نافع في القرن الأول الهجري. وأخبار زينب بنت تندلة، وفيها دلالة على قدم بلدة تندلة، وقدم وادي ريغ، ووجود السكان بها في حدود 790-800هجرية.

ـ أن وادي ريغ شهدت تأسيس إمارة بني جلاب، وفيه دليل عن حضارة عريقة، في الوقت الذي فضل فيه سكان وادي سوف

الحرية خارج سلطة المخزن، ولم يوافقوا على طلب الولية الصالحة بالدعاء لهم بالسلطان الحاكم، لأنهم اعتبروه تكبيلا لسلطتهم، وتقييدا لحركتهم.

- كانت وادي ريغ مزدهرة اقتصاديا بوجود المراعي، وتصدير الصوف، والقحط الذي ذكرته الروايات كان عارضا فقط.

- تبوأت المرأة مكانتها الدينية والسياسية، وهذا من أهم الملامح الحضارية للمنطقة، وكذلك مدى اهتمامهم بالدين، ولو من قبل المرأة، فضلا عن تشييد المساجد، ولا يمكن مقارنة ذلك التدين بما هو الآن، فلكل عصر قيمته العلمية التربوية.

وعموما يبقى كتاب العدواني مصدرا تاريخيا في حاجة إلى تقليب معلوماته، واستخراج فوائده التاريخية، ورصد القرائن المتعددة التي تساعد على نفض الغبار عن تاريخ الجنوب الشرقي الجزائري بأكمله.

# القسم الرابع
## المجتمع الجزائري والعلاقات الداخلية والخارجية في العهد العثماني

أولا: دور الطريقة الشابية الدعوي والاجتماعي في الجنوب الشرقي الجزائري ووادي سوف (1540-1860م)

ثانيا: تأثير الأوبئة على العلاقات الإنسانية في الجزائر داخليا وخارجيا خلال العهد العثماني (1518-1830)

# دور الطريقة الشابية الدعوي والاجتماعي في الجنوب الشرقي الجزائري ووادي سوف (1540-1860م)

**مقدمة:**

ظهرت أسرة تونسية ذات أصول شريفة، تدعى " الشابية" في النصف الثاني من القرن 15م، والتي سلك مؤسسها الطريق الروحي الديني، واستطاع تأسيس طريقة صوفية، ساهمت في الحياة الروحية والثقافية والسياسية في تونس، وتعدى أثرها الحدود إلى بلاد الجزائر منذ القرن السادس عشر واستمر إلى القرن التاسع عشر.

وقد اغتنم شيوخ الشابية الظروف السياسية السيئة، والاضطرابات التي عاشتها الدولة الحفصية، والتحرش الإسباني وتغلغله في ضفاف المتوسط، وأعلنوا - بكل إقدام وشجاعة - الانفصال في القيروان، وكونوا دولة - منافسة لخصومهم الحفصيين - عمرت نحو ثلاث وعشرين سنة.

وقد اخترت الكتابة في تاريخ الشابية منذ نشأتها وحتى نهاية القرن التاسع عشر لعدة اعتبارات منهجية، ودلالات تاريخية:

- إبراز المكانة الهامة لطريقة صوفية، رفعت لواء مقاومة الظلم، ومحاربة الاستعمار، والتصدي بقوة لقوى القهر والطغيان مهما كان حالها.

ـ الدور العلمي والروحي والثقافي، وانعكاساته على بلاد الجريد والجنوب الجزائري ولاسيما في وادي سوف فضلا عن مناطق الشرق الجزائري.

ـ إظهار الارتباط الكبير لتاريخ الشابية بإقليم وادي سوف منذ نشأة الطريقة واستمرار العلاقة العلمية والروحية بالخصوص إلى نهاية القرن التاسع عشر.

ـ المآثر الخالدة للشابية، وبصماتهم الباقية، وآثارهم الملموسة في مساجد وادي سوف العريقة، التي هي قلاع العلم والدين، والتي حافظت على مقومات الشخصية العربية الإسلامية لهذا الإقليم.

ومن خلال دراسة المآثر الخالدة للشابية في وادي سوف ندرك أهمية الدعوة إلى التمسك بالدين والعقيدة، التي رفع رايتها الشيخ محمد المسعود الشابي في أواخر القرن السادس عشر، والفضل الكبير الذي تركته الطريقة في سوف، في زمن شح فيه العلم، وقل العلماء والشيوخ، وذبلت الدعوة إلى الخير، فقام شيوخ الشابية بنشاطهم خير قيام، فأنصفهم التاريخ، وسجل مآثرهم في سجل صفحاته الناصعة، والتي نحاول إبرازها من خلال هذه الدراسة الأولية، والتي نأمل أن تؤدي مقصدها في عرض المآثر حتى تكون واضحة جلية، ولعلها تبعث روحا جديدة في النفوس.

**1) نشأة الطريقة الشابية ودورها السياسي:**

تمثل الشابية، الاسم الذي أطلق على الأسرة التونسية، والبلدة الي تقع في الناحية الجنوبية، وهي طريقة صوفية، ودولة ظهرت في القرن 15م، في تونس، وامتد نفوذها إلى الجزائر، واستمرت إلى أواخر القرن 17م، وكان لها آثار ومآثر في منطقة وادي سوف.

**أ) نسب شيوخ الشابية:**

ترجع الأصول الأولى لأسرة الشابية إلى بلدة "الشابة"، الواقعة على ساحل البحر المتوسط قرب المهدية التونسية،[1] وتنتمي في نسبها إلى الأشراف، إذ يمتد نسب مؤسسها الشيخ أحمد بن مخلوف إلى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. [2]

ولد أحمد بن مخلوف في الشابة سنة 835هـ الموافق 1431م، وبها تربى وصار مثقفا، وشيخا صوفيا بارزا، ثم انتقل إلى القيروان وتولى إمامة أحد مساجدها فنال شهرة واسعة، وثقة كاملة، الأمر الذي جعله يكسب جمهورا كبيرا من الأتباع والأنصار، وصار رئيسا

---

1 - علي الشابي: " مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية" ـ في ــ **المجلة التاريخية المغربية**، يناير، تونس 1979، ص55.

2 - محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني** ، تح أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996، ص ص110-11. إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع ـ الجزائر، الدار التونسية للنشر ـ تونس، 1977، ص192.

لهم،[1] فاستقطب أحمد بن مخلوف المريدين من مختلف أنحاء إفريقيا والمغرب، وكسب ولاء قبيلة الحنانشة التي تقطن في الرقعة الممتدة من تبرسق على ضفة وادي مجردة إلى الأوراس بالجزائر، وتوفي أحمد بن مخلوف سنة 898هـ(1492م) ، فخلفه ابنه الأكبر "محمد" لمدة ثلاث سنوات، ولما توفي آلت الرئاسة لابنه الثاني "عرفة" الشابي الذي لعب دورا هاما في تلك الظروف وخصوصا في البلاد التونسية.[2]

**ب) عهد الشيخ عرفة بن أحمد الشابي(1473-1542م):**

كانت البلاد التونسية تحت حكم الدولة الحفصية، تعيش حالة من الفوضى والاضطراب، وخاصة في عهد الحسن الحفصي(1525-1535م)، الذي زاد ظلمه، فاندلعت الثورات ضد حكمه، وهاجمه خير الدين بربا روس من الجزائر، فاستنجد بالمسيحيين، الذين هاجموا تونس، وحينئذ، احتل شارل الخامس تونس سنة 1535م. وكان ذلك سببا مباشرا دفع "عرفة الشابي"،[3] إلى محاربة الدولة الحفصية،

---

1 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 180.

2 - علي الشابي، **تاريخ الشابية خلال العهدين الحفصي والعثماني من سنة 1431إلى سنة 1867**، دار نقوش عربية، ط1، تونس، 2015، ص ص 73-90.

3 - **الشيخ عرفة الشابي:** هو سيدي عرفة بن مخلوف، ولد بالقيروان في حدود سنة 878هـ/1473م، وكان والده في الحج، فسماه عرفة تيمنا بالموسم العظيم، وتمت التسمية عند رجوعه إلى القيروان، عاش طفولته في زمن الدولة الحفصية، ويومئذ ازداد تمرد الأعراب، فانقضوا على المراكز الحضارية، فتصدى لهم السلطان أبو عمرو عثمان، وبدأ طلب العلم على علماء بلده ولاسيما والده، الذي حفظه القرآن، ثم تتلمذ عليه في علوم التوحيد والفقه وصار

والمبادرة بتأسيس دولته الصوفية بالقيروان، وتحقق ذلك بمساندة القبائل التونسية والجزائرية. [1]

**2) مراحل تاريخ الشابية:**

**أ) مرحلة الدعوة:** وهي المرحلة التي استطاع فيها مؤسس الطريقة الشابية أحمد بن مخلوف أن يكسب لطريقته، ولاء سكان المدن والقبائل المختلفة، وهم الذين استعان بهم عرفة الشابي في مطلع القرن العاشر لتدعيم الطريقة وتأسيس الدولة، وخاصة أولاد سعيد، ودريد، والهمامة، وقبيلة طرود السوفية، وأولاد مهلهل، والنمامشة، والحراكته.

**ب) مرحلة تأسيس الدولة:** وهي المرحلة التي استطاع فيها عرفة الشابي، أن يخوض المعارك وينتصر، ويؤسس دولته بالقيروان سنة 949هـ (1532م) بعد أن هزم الحفصيين والإسبان، وعند وفاته خلفه ابن أخيه محمد بن أبي الطيب، ولكنه انهزم أمام الإسبان

---

يعرف عند المشارقة بالمالكي، كما أخذ عنه التصوف وأصول الطريقة الشابية، ولما بلغ العشرين، أقره والده في إعطاء العهد في الطريقة، رغم أن المشيخة كانت لابنه محمد الكبير. وأنجب سيدي عرفة أربعة من الأبناء هم أحمد، ومحمد الزفزاف، والطاهر، وبنت لم يعثر الباحث عن اسمها. وكانت وفاته سنة 949هـ/1542م أنظر: علي الشابي، **عرفة الشابي رائد النضال في العهد الحفصي**، الدار العربية للكتاب، تونس-ليبيا، 1982، ص ص34-48. = = ابن العماد الدمشقي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط1، دمشق- بيروت، 1993، المجلد 10، ص397.

1 - علي الشابي: " مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية" ، ص55.

والعثمانيين، عندما هاجموه سنة 965هـ(1557م) قرب القيروان، وأسفرت المعركة عن قتله وسقوط الدولة الشابية التي عاشت ثلاثا وعشرين سنة.

**ج) مرحلة الاحتفاظ بولاء القبائل:** وفي هذه المرحلة توزع قادة الشابية إلى ثلاثة أقسام:

**1ـ الاتجاه الروحي الخالص:**

ومثله بدر الدين بن محمود بن عبد اللطيف، والشيخ محمد المسعود الشابي صاحب الفتح المنير، وابناه كنوز وعلي الشابي صاحب كتاب مناقب محمد المسعود الشابي.

**2ـ الاتجاه الروحي الزمني:**

وهو اتجاه جمع بين هداية الناس، ومحاربة العثمانيين، ومثله محمد الزفزاف بن[1] عرفة الشابي، ومحمد بنور بن عبد اللطيف والد محمد المسعود وعبد الصمد.

**3ـ الاتجاه الثوري الخالص:**

وهو الذي أراد استرداد الدولة الشابية الضائعة، والانتقام لأهله وذويه، ومثله عبد الصمد، وعلي بن عبد الصمد، وبوزيان بن علي.

وكل هؤلاء الشابية - على اختلاف اتجاهاتهم - كانوا متفقين في الاحتفاظ بولاء القبائل التونسية والجزائرية، والاستعانة بهم، وظلوا

1 - علي الشابي: " مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية" ، ص57.

يتنقلون أكثر من قرن من سنة 965هـ(1557م) إلى سنة 1088هـ (1677م). ودخلوا في مواجهات مع العثمانيين في الجزائر وتونس، وكانوا يلتجئون إلى القبائل الصديقة من الجنوب الغربي التونسي إلى أقصى الشمال الغربي، ومن عنابة إلى قسنطينة وخنشلة وتبسة، وتيزقرارين، وجبل ششار.

وقد استقر أغلب الشابية قرب توزر ابتداء من 1860.[1] وتعتبر "توزر" قاعدة شط الجريد بالجنوب التونسي، وتحتوي على عدة مواقع، أهمها بلدة الشابية،[2] موطن الأسرة المهاجرة إليها، وقد أسس بها أحفاد الشيخ محمد المسعود زاوية تدعى " بيت الشريعة" وأصبح ابن جدو، شيخ الطريقة الشابية. [3]

**3) مظاهر العلاقات السياسية بين الشابية وسكان وادي سوف:**

تعود العلاقة بين وادي سوف والشابية إلى القرن 15م، وتحكمت فيها المصالح، مما جعلها علاقات مضطربة متذبذبة، بين مد وجزر، وتتسم بالولاء للشابية حينا، ومعاداتهم ومحاربتهم والوقوف إلى جانب أعدائهم، حينا آخر، لأن الإغراءات المادية لعبت دورا بارزا في

---

1 - علي الشابي: " مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية" ، ص ص55-57.

2 - احمد البختري: **الجديد في أدب الجريد**، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1973، ص ص12-14.

3 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص276.

ذلك، وقد ذكر العدواني في تاريخه[1] حوادث عديدة، وأخبار مستفيضة حول الحروب التي دارت بين الشابية وقبيلة طرود السوفية، ويمكننا الوقوف عند واقعتين فقط:

**أ) أول اتصال للشابية بوادي سوف:**

كانت سوف على صلة بالقيروان بواسطة التجارة، فقد تعرف تجار سوف بالشيخ "عرفة الشابي"، الذي أكرمهم، واتفق معهم على نصرته عندما يعلن ثورته ضد الوالي الحفصي، وحينما عزم الشيخ عرفة على الثورة، راسل سكان سوف، فلبوا النداء، وتم ذلك في حدود سنة 1536م، وفي ذلك يذكر صاحب الصروف: " ثم تجمع منهم خمسمائة فرس وثمانمائة رجل وذهبوا، ولما وفدوا عليه، وجدوه نازلا بعبيده وهو محل قرب الكاف، فاهتز لهم فرحا وسرورا، ثم قام مرحبا بهم وقال لهم، يا طرود من نصرتموه انتصر، ومن كسرتموه انكسر، قليلكم كثير، وكثيركم لا حد له..." [2]

ثم اندلع القتال، ودام عدة أيام، وبدأت الهزيمة تدب في جيش الشابي، لولا شجاعة أهل سوف وإقدامهم، وذلك رجح الكفة، وانتصر الشيخ عرفة الشابي على أعدائه، وقد أشار إلى ذلك العوامر: " قال الطروديون لبعضهم بعضا، إن العار في انهزامكم حيث إن

---

1 - أنظر تاريخ العدواني ، ص ص173-180-185-318.

2 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، صص180-181.

الرجل (الشابي) وثق بكم واستنجدكم من مكان بعيد للثبات والفوز، فالموت دون الرجوع، وحلفوا أن لا يرجع أحد منهم، إلا إذا كان ظافرا، وحملوا حملة صادقة على جيوش الوالي فهزموهم ثم تتبعوا أثرهم يأخذون الغنائم والأسارى...". [1] وهكذا ساهم أهل سوف في نصرة الشابي إلى أن أسس دولته.

**ب) سوء العلاقة بين الشابية وسكان سوف:**

عندما أعانت طرود عرفة الشابي لم يرضوا بقيمة الغنائم، وعزموا على عدم نصرة الشابية مرة أخرى، وذلك جعل الباي التونسي يغتنم سوء العلاقة، ويوطد علاقته بأهل سوف، عن طريق الهدايا، وذلك جعلهم يساندونه في معركته مع عبد الصمد الشابي[2] حينما كان يحاول استرجاع ملكه الضائع في حدود 1632م، ولكن إعانة أهل سوف رجح الكفة لصالح الباي حمودة باشا فانتصر على الشابية. [3] فكان دور الشابية في تلك الأثناء مقتصرا على نشر الطريقة فقط.

---

1 - المرجع السابق، ص181.

2 - الراجح والصحيح هو ابنه علي بن عبد الصمد الشابي الذي توفي عام 1637م. أنظر: علي الشابي: مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية ، ص80.

3 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص189.

**4) مآثر الطريقة الشابية بوادي سوف:**

ترجع مآثر الطريقة إلى أواخر القرن 16م، وترتبط عضويا بزيارة الشيخ محمد المسعود الشابي لوادي سوف، ومواصلة الرحلات من بعده، والتي قام بها الأبناء والأحفاد، ويمكن حصر بعض المآثر فيما يلي:

**أ) قدوم المسعود الشابي لوادي سوف:**

كان الشيخ المسعود الشابي من رجال العلم والصلاح، وهو ثالث حفيد لابن مخلوف، ولد عام( 970هـ-1562م) وهو " محمد المسعود بن محمد بنور الشابي". وعند سقوط الدولة الشابية بالقيروان، انتقلت به أسرته إلى توزر، وهو صغير، فحفظ القرآن، وتتلمذ على شيوخ توزر ومنهم الشيخ التواتي شارح كتاب المدونة وكتاب سيبويه، وكان كثير الترحال، وأدى فريضة الحج عام 1594، وأجيز أثناء مروره بالقاهرة من أحد علماء الأزهر، كما اتصل بثلة من علماء مصر وناقش آراءهم. وقد اشتغل محمد المسعود بالتأليف منذ شبابه، فكتب ثمانية عشر كتابا في التاريخ والفقه والتصوف والتوحيد لم تبق منها إلا الكتب التالية:

1ـ الفتح المنير في التعريف بطريقة الشابية وما ربوا به الفقير.2 ـ الدر الفائق.3ـ جزءان من المقرب المفيد، أحدهما في التوحيد والآخر

في فقه المعاملات.4ـ الشرح على المختصر الصغير في العبادات.5 ـ قطعة من 40 صفحة من شرح العقيدة كتبها أحد تلاميذ الشيخ. [1]

أما سبب مجيئه لوادي سوف، فهو من أجل "الدعوة إلى الخير" ، فقد بلغ إلى مسامعه أن أهل سوف، أهل دين وخلق ولهم قابلية الاقتداء بما رأوه وسمعوه، فصمم على زيارة بلادهم، ونفذ ذلك، ونزل بأرضهم بعد عام 1600م، في مكان يدعى "اللجـة" نسبة إلى ماء الأودية في الناحية الشرقية ما بين الزقم والبهيمة(حساني عبد الكريم) وما حولها من القرى.

وكان أول من استضافه بالزقم هو"سيدي أحمد عزيز" لمدة ثلاثة أيام، ولما انقضت أخبره الشيخ المسعود عن سر مجيئه إلى بلدة سوف فقال: " إني رأيت في المنام من يقول لي اذهب إلى هذه الناحية وعلم أهلها دين الله وسنة رسوله، فان إيمانهم في تردد كبير". ومنذ ذلك اليوم أخذ "سيدي المسعود" يعلم الناس الدين، ويرشدهم إلى الخير، حتى وفقه الله فاهتدى على يده خلق كثير. [2]وأهم مآثر سيدي المسود بالمنطقة المعنية:

---

1 - علي الشابي: مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية ، ص ص62-63.

2 - علي غنابزية: " المسعود الشابي: الرحلة العلمية والأثر الدعوي" ، **جريدة النبأ**، الجزائر، جويلية 1999، العدد313 ، ص13. إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص193-194.

**1) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

عندما التقى محمد المسعود الشابي بسكان وادي سوف في أواخر القرن 16م، وجد بعض الانحرافات الأخلاقية والعقائدية، والصدود عن سماع الحق، وذكر العدواني أن بعضهم كانوا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان. فعندما استضافه "أحمد عزيز" بالزقم قال له سيدي المسعود: " ... هل تجد لي عاقلا أجالسه؟ فقال له: ولماذا؟ قال: نريد أن أدله على معرفة الله وتوحيده ويدخل في دين الإسلام. فقال له السيد أحمد: هيهات، هيهات يا شيخ البركة! وإني قد عالجتهم معالجة موسى لبني إسرائيل، فلم يقبلوا مني قولا ولا عرفوا شيئا، وإذا رأوني أذكر أو أقرأ كتاب الله يصيرلعبوا بي ويقول: ما أحلى غناك يا مرابط، أحمد، وهكذا." [1] وذكر العدواني في موضع آخر كيف دعاهم إلى الإسلام وكان أول من أسلم من أهل اللجة رجلا يدعى عون بن موسى اللجي، وعلمه سورة الفاتحة، وأعانه على دعوة قومه لمدة سبعة أيام، فأسلم منهم ثلاثة وعشرون رجلا، فعلمهم الفاتحة، وتعهدوا أن يدفعوا له كل عام عن رقابهم خراجا(مالا). أما أهل تكسبت

1 - تاريخ العدواني ، ص ص111-112.

القديمة،[1] فلما دعاهم أخرجوه، وسبوه، وهددوه، ورفضوا استضافته. [2]

ووجد نفس الصدود من أهل كوينين، وكادوا يفتكوا به، فاتجه نحو تاغزوت، وكان أغلب سكانها من النصارى، وكان من بين السكان رجلين يستخفيان بإسلامهما ويقرآن القرآن خفية في عريش أعد لذلك، فمكث معهما وقتا ثم رحل راجعا،[3] وفي نيته أن يرسي في منطقة سوف معالم تنير الطريق للسكان.

**2) الدعوة لتأسيس المساجد بسوف:**

عندما استقرت قبيلة أولاد أحمد، ومعهم لعشاش، وبتشجيع من أولاد سيدي مستور، وضعوا النواة الأولى لمسجد الوادي، ونتصوره من الحلفاء والحطب في بساطته، وبعد ظهور غراسة النخيل بالوادي في حدود سنة 946هـ/ 1540م.[4] دعموه بالجريد وأخشاب النخيل، والجدير بالذكر أن تلك الفترة شهدت قدوم سيدي عرفة الشابي، فدعاهم إلى تطوير المسجد والاهتمام به أكثر، فيكون تشييده في حدود سنة 1530م كما أشارت الوثائق الأرشيفية الفرنسية، وشيد

---

1 - وهي نزلة ضواي روحه الحالية.

2 - تاريخ العدواني ، ص ص114-115.

3 - نفسه، ص ص123-125.

4 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص184.

من طرف الشيخ العش وأولاد أحمد،[1]وقد طوروا البناء، واستعملوا الجبس والحجارة، وكان ذلك في أواخر القرن السادس عشر، وكان التشجيع من سيدي المسعود، بعد سنة 1600م.[2]

لقد نزل الشيخ محمد المسعود في مدينة الوادي عند أحد كبرائها وهو " العش بن عمر بن سليمان بن محمد اليربوعي"، فأضافه وأكرمه، واعتذر له عن تقصيره في أول الأمر، فدعا له ولأبنائه بالحظ العظيم، وحتى عندما رحل إلى نحو كوينين، أرسل إليه ابنه خليفة يحمل إليه تمرا وخبزا ومرقا. وبذلك توطدت العلاقة بين الرجلين، وتوسم فيه الخير والقبول، فمكث مدة بالوادي يعلم الناس،[3] ثم رأى الشيخ محمد المسعود بثاقب فكره، ونور بصيرته، أن المسجد له أكبر أثر في تثبيت الحق، وصون الدين، وترسيخ الإيمان، في قلوب سكان وادي سوف، فدعاهم إلى الاهتمام بالمسجد الذي نسب إليه، وهو المسجد العتيق، مسجد سيدي المسعود الشابي بالسوق،[4] وجدد في حدود 1010هـ/ 1600م حسب التحقيق الذي ذكره بعض شيوخ

---

1 -. A.O.M. 17H41. Notices de Mosquée de Sidi El Messaoud ( Mosquée de Marche )-1913.

2 -. Bataillon **: le Souf étude de Géographie Humaine**, université d'Alger. Institut de Recherches Sahariennes. p 67.

3 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص193-194. تاريخ العدواني ، ص ص123-124.

4 - علي غنابزية، المرجع السابق، ص13.

المنطقة،[1] بينما ترجع الكتابات الفرنسية إلى زمن 1597م،[2] وهو يرجع تاريخ قدوم سيدي المسعود، والمسجد قد بني لاحقا من طرف عرش لعشاش، وأكمل بمحضر بعض أولاده، وقيل أحدهم يدعى "علي الشابي"[3]الذي قدم إلى سوف بعد رحيل والده إلى بلاد الجريد.

فقد أمر الشيخ سيدي المسعود ابنه علي أن يسافر إلى سوف، وكان يرافقه في رحلته بعض أهل سوف ومنهم بالليل، وسعد الكبير بن عمر بن نصر العدواني، وبدئوا أول اتصال بأحمد عزيز اللجي، ثم انتقلوا إلى مدينة الوادي نحو تكسبت، ثم استضافهم الشيخ العش، واتصل بالناس، ودعاهم إلى الخير، واتصل بأهل كوينين، وتاغزوت، ولقي منهم معارضة، ولكنه واصل طريقه نحو وادي ريغ. [4]ومما ورد صراحة في تاريخ العدواني قوله: ( قال الراوي: ثم انتقل قاصدا إلى واد ريغ، تأتي قصته ـ إن شاء الله). [5]

وهنا توقف تاريخ العدواني ولم يَحْكِ قصة الشابية، وضاع معها تاريخهم ودورهم في الجانب الديني، ولكن النبذة التاريخية التي

---

1 - ذكره الشيوخ مصطفى سالمي، ومحمد الطاهر التليلي، وأحمد خراز في تقاييدهم.

2 - Bataillon**: le Souf**,p 67

3 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص194.

4 - محمد العدواني، المرجع السابق، صص130-132.

5 - نفسه، ص132.

بسطها حقي محمد السايح التجاني التماسيني في ورقاته، ذكر الأعراب الذين قدموا لوادي ريغ:

(لقد تداولت على هذه الواحة دول حسب وقتها وظرفها: أولا: أعراب من ناحية الجريد بالمملكة التونسية أتوا من صحراء قابس ومن طرابلس يقصدون المصيف في الرمال وبصحبتهم الشيخ خليفة وابنه الشيخ مسعود والشيخ بوناب ونشروا الدين نشرا جميلا وإلى الآن يقال للمسجد الجامع لاجتماع الناس به، وتأسس جامع سيدي المسعود بوادي سوف والذين أسسوه من الشابية وهم من ذرية عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل). [1]

وبما أن التحقيق السابق يجعل الحكم الجلابي في حدود 1530، فإن الجلابي الأول أمرهم ببناء المسجد، وربما يكون الجامع الكبير بحي مستاوة بتقرت،[2] وهو الزمن الذي شهد حركة الشابيين حسب رواية العدواني. وقد بنى علي الشابي مسجدا في قمار، في حدود عام 1015هـ(1606م).

---

1 - أنظر: سالمي مصطفى: **الدر المصفى**، جمع وتحقيق، علي غنابزية، مخطوط، ص33.

2 - أنظر: معاذ عمراني: أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ميلاديين، رسالة ماجستير، مرقونة وغير منشورة، تحت إشراف الدكتورة فاطمة الزهراء قشي، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، نوقشت في 9 أفريل 2003، ص21. عبد الحميد قادري، **التعريف بوادي ريغ**، منشورات جمعية الوفاء للشهيد بتقرت، ( دط)، ( د ت ط) ،ص48.

واستمر الشابية في تشييد المساجد وخاصة في قمار، إذ أسس أحمد بن علي الشابي جامع بيت الشريعة 1085هـ(1674م)، فقد نصبت في بادئ الأمر خيمة شعر غربي قرية قمار، وسموها "بيت الشريعة" ثم صارت الخيمة مسجدا، وقد جعلوا في مصلاه عصا ثم خشبة ثم حجرا،[1] كما أسس الشابية زاوية في قمار، وتقع في دار أولاد سيدي عمار. [2]

**3) زيارة سوف وتعهد أهلها:**

ظل الشيخ محمد المسعود الشابي يتعهد البذرة التي زرعها في الوادي، فكان يرعاها بالزيارات بين الحين والآخر، ويتنقل بين قراها كالدبيلة وغمرة والدميثة وغيرها، إلى أن توفي عام 1028هـ(1619م) ودفن بزاويته ببلدة ششار قرب مدينة خنشلة. [3]

---

1 - بقي الحجر يتبرك به سنين طويلة، ثم انتزع وأخرج من المسجد بدعوى أنه صار وثنا يعبد من دون الله، وكان ذلك سنة 1354هـ(1935م). أنظر: محمد الطاهر التليلي: **من تاريخ وادي سوف**، مخ، ص68.

2 - محمد الطاهر التليلي، المرجع السابق، ص68.

3 - علي غنابزية: المرجع السابق، ص13.

واستمر التعهد لمنطقة سوف من طرف ابنه علي وأحفاده، الذين كانوا يأتون سنويا لجمع التمر وخاصة من قمار، [1] وكانوا يستقرون بمدينة الوادي في حي لعشاش في بيت قرب مسجد أولاد اخليفة، وطلبوا من أهل الوادي أن يعطوهم "الزيارة" من "النوق" لأنهم أهل بركة وشرف وصلاح، فرفضوا ذلك، وقد سجل الشعر الملحون ذلك:

يا شابي رَاوْ شَادْ خُبْرُك * ومنك الخناثة يذوبو

اطبخ سبع ارشادات إذا كان هم ذابوا إحْنَا انذوبو

ولكن أهل سوف كانوا يعطونهم التمر، [2] وقد اشتهرت خرافة "الجنية" التي تأكل بلح النخيل بقمار، فاستغلها شيوخ الشابية، ووضعوا على كل غوط من غمرة عرجون أو قصعة تمر تعطى لشيوخ الشابية عند زيارتهم لقمار، وصورة الخرافة، أن الجنية خرطت البلح من نخيل غمرة فاشتكى أهل قمار إلى سيدي عمار بن رمضان، فلحق بها وقبض عليها ورمى بها جهة الشرق. [3] فاستمر أهل قمار يدفعون التمر لأبناء سيدي عمار وأحفاده مكافأة على ما فعله جدهم. [4]

---

1 - علي غنابزية، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ/19م.(رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر تحت إشراف الدكتور عمار بن خروف، نوقشت بجامعة الجزائر"2002، ص185.

2 - لقاء مع السيد أحمد خراز ببيته يوم الخميس2001/05/10.

3 - محمد الطاهر التليلي المرجع السابق، ص68.

4 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص99.

والجدير بالذكر أن الشيخ أحمد عمار كان من المترددين على سوف، وكان يمثل شيخ بيت الشريعة في الجريد، وأصدر إجازة في جمادى الثانية 1279هـ(سبتمبر1862م)، وكانت متداولة بين أتباعها، وكان لهذه الطريقة أذكار وقواعد تشبه أوراد الطرق الأخرى. [1]

وكانت الاتصالات بين الأتباع في قمار والجريد حول الاهتمامات تتم بواسطة المراسلات. [2]

والجدير بالتنويه أن أتباع الطريقة الشابية في وادي سوف، كان مقتصرا على قمار والدبيلة ممثلا في بعض العائلات التي تحمل اسمها.[3]

**ب) أثر أدب عبد الصمد الشابي بسوف:**

يمثل عبد الصمد الشابي، الخط الثوري في الطريقة الشابية، وهو الذي خاض حروبا طاحنة، وحاول استرجاع ملكهم الضائع ودولتهم الزائلة، ودخل في صراع مع أخيه "محمد المسعود" لأنه لم يوافقه في سيره، واستمر عبد الصمد في كفاحه إلى أن توفي سنة 1025هـ(1616م)، فخلفه ابنه علي إلى أن توفي سنة 1637م، فواصل الثورة والكفاح ابنه بوزيان إلى أن توفي هو الآخر سنة 1664م دون أن يحقق الأهداف التي قاتل من أجلها، واستمر أبناؤه

---

1 - علي غنابزية: مجتمع وادي سوف، ص185.

2 - انظر رسالة رجال الشابية بالجريد إلى إخوان لهم بقمار حول المسجد العتيق في الملحق.

3 - Ahmed Nadjah: **le Souf des Oasis**- édition la maison des livres-Alger,1971, p :125.

في تجنيد القبائل والقتال إلى سنة 1677م، وبعد ذلك آثر الشابية الانزواء والتفرغ للعلم. [1]

ورغم الطبيعة الثورية التي اتصف بها عبد الصمد الشابي، فقد اشتهر بأدبه الشعبي وحكمه وألغازه، وأحاجيه في الجزائر وتونس. [2]

تلك الألغاز والأحاجي التي تعرض خاصة في الليل من طرف الكبار عندما تجتمع العائلة فتكون هي الوسيلة المفضلة للتسلية والسمر على ضوء القمر، وألغاز عبد الصمد تبدأ عادة بعبارة" عبد الصمد قال كلمات..." ويتركب اللغز الصمدي من (مدخل) و(وصف المجهول) ثم عبارة (التخفية) وهي عبارة التضليل والمخادعة. [3]

ومثال ذلك:

عبد الصمد قال كلمات واصنتوا يا حزوني [ المدخل]

بعيني شفت الماء في مغدر الدم [ وصف المجهول]

وكان كذبت احرقوني [ التخفية]

والحل هو: " القربة". [4]

---

1 - علي الشابي: مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية ، ص ص79-80.

2 - نفسه، ص ص80-81.

3 - بن علي محمد الصالح، **الألغاز الشعبية في وادي سوف** ، دار الشهاب، ط1، باتنة ــ الجزائر، 1998، ص ص05-06.

4 - بن علي محمد الصال، المرجع السابق، صص05-06.

ونجد في ثنايا ألغازه وأحاجيه النقد الاجتماعي، والبلاغة في التعبير والوصف للأشياء ببراعة متناهية، فهو يقول عن "سواد العين".

أقل من عفست الفار * وأوسع من بحيرتْ السبيخة

هذا حجاي عبد الصمد * ما هوش حجاي اليهودي الجيفة

وقال عن النخلة:

أنثى وشعر راسها زين * من الحر يبس عضاها

ضِناك اِلْيَا بِكَا بدمعت العين* ما يسكته كان ضناها[1]

1 - سالمي مصطفى،**الدر المصفى**، رتب مادته وصنفه وعلق عليه: علي غنابزية(مخ) أوت 1999-سبتمبر 2001، ص171.

**الخاتمة:**

يزخر تاريخ أمتنا بالقيم والمآثر الجليلة النابعة من التربية الروحية والسلوك الصوفي، الذي أثمر العلم والأخلاق والجهاد، في مختلف أرجاء العالم الإسلامي.

ويعتبر تاريخ الشابية أحد المراحل المميزة في تاريخ وادي سوف منذ القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر، لأنهم جسدوا مآثرهم، وخلدوا أعمالهم في حياة السكان، عندما ساهموا بفعالية وصدق في حماية الذات العربية الإسلامية من الذوبان والتلاشي، ورسخوا القيم في النفوس بعد ذبول القلوب، وبعثوا الإيمان الصادق والخلق الكريم بعد انحراف السلوك الذي ران على حياة الناس حينا من الدهر.

وقد مثل تشييد المساجد وتجديدها في ربوع وادي سوف وخاصة في مدينة قمار والوادي، أبرز المآثر المخلدة لأسرة الشابية الشريفة، التي وجدت من أهل سوف الحب المتبادل، والرعاية والاحترام والتقدير والمؤازرة.

والجدير بالتنويه في آخر هذه الدراسة الأولية، هو اقتصار هذا الموضوع على شذرات من تاريخ الشابية، ولقطات تحتاج إلى إثراء أكثر، ودراسة أعمق، وتوسيع البحث في المستقبل إلى جوانب أخرى وخاصة في أصول الطريقة الشابية وأفكارها وأذكارها وقيمها الدينية.

- **ملحق:**

نص رسالة من رجل من رجال الشابية بالجريد إلى إخوان له بقمار حول المسجد العتيق بقمار.

(الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم:

حفظكم الله تعالى ورعاكم بمنه وكرمه نولاكم، المكرمون الاجلّون إخواننا: الشيخ سي أحمد بن عبد الله، وسي علي بن الحاج سالم، وسي بلقاسم بن عمار، وسي الحاج صالح بن عائشة، وسي الحاج محمد بن عمار، وسي رمضان، وسي صالح بن اقا، وسي الحاج محمد بن القحف، وسي اعمارة بن الريغي، وسي الحاج عمار بن اسّا، وكافة الاخوان كبير وصغير، من غير تخصيص.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد:

أولا السؤال عنكم وعن اخوانكم، لازلتم بخير من الله وعافية، مع ملازمتنا إليكم بالدعاء الصالح والله يتقبل آمين.

ويليه: فإننا قدمنا من سفرنا على خير، ولازال أخينا في تونس، وبعد فانه لما قدم لنا جوابكم في نازلة الجامع، فتحيرنا حيرة عظيمة، ووقعت فينا ضجة حتى كادت ارواحنا تخرج، ولا وقدت نار في دار من ديار الشابية منها، نحن باذلين جهودنا في نازلة الجامع نطلب من الله تعالى النصر على أعدائنا، ولا بد انتم تكونوا حزبًا واحدًا، ويدًا واحدةً، ما تاخذكم الفشلة. ونحن إن شاء الله ساعين في القدوم إلى الشيخ سيدي

علي بن عثمان، فان نلنا مقصودنا فنعم، وإلا فان لم تنالوا مقصودنا، فنازلة الجامع تكون في الشرع الفرنساوي، وتهيئوا لنا أنتم المصاريف، ولا خير في أناس يبيتون على ذلهم، ولنا أخ في عنابة قايد قياد، فإننا أعلمناه بالنازلة ليبذل جهده فيها، أما انتم لا بد من الرجوع ضد مكتوبنا فورًا، لأننا عازمون على السفر إلى بلد بسكرة، وعندنا انتظار في قدوم أخينا سي بنجدُّ لأنه قريب يقدم إن شاء الله. ودمتم بخير والسلام.)

من ابراهيم بن الحاج أحمد الشابي، وسعيد بن عمار، ومشايخ بيت الشريعة في 28 محرم 1305،[1] وهاه يصلكم مكتوب إلى الشيخ سيدي علي بن عثمان تمكنونه له والسلام. إهـ. [2]

1 - الموافق لسنة 1887.

2 - وجدت هذه الرسالة التاريخية ضمن وثائق وتقاييد الشيخ أحمد مفتاح القماري.

# تأثير الأوبئة على العلاقات الإنسانية في الجزائر داخليا وخارجيا خلال العهد العثماني (1518-1830)

**ـ تمهيد:**

يعيش الإنسان حياته الطبيعية الرتيبة، وينسج علاقاته بكل حرية، ويتنقل بين البلدان بدون حرج وبعفوية متناهية؛ وفي المقابل تأتي عليه ظروف شديدة تقيد حركته، وتحدد طابع حياته، وتضبط علاقاته في نطاق يفرضه الواقع الجديد. ومن أهم الدوافع لذلك الواقع، الحروب، والمشاكل السياسية، والأزمات الاقتصادية، والأوبئة القاتلة.

وعرفت الجزائر في تاريخها الحديث سلسلة من الأوبئة القاتلة، انتقلت اليها من بلدان عديدة، فشلت حركتها، وخلفت آثارا سيئة على بنيتها القاعدية، وحياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وأجبرتها على الحجر الصحي، واتخاذ مختلف التدابير لمواجهة تلك الجوائح. وتتناول هذه الدراسة مظاهر العلاقات المتأثرة بالوباء في الجزائر خلال العهد العثماني، وكيف تعاملت معها السلطة والرعية؟

أما إشكالية الدراسة، فتنطلق من تشابه أوضاع الناس وأحوالهم في زمن الوباء. ودراسة وباء الطاعون خلال العهد العثماني بالجزائر، في زمن كورونا " كوفيد 19 " في هذا العام 2020م، له قيمته في الكشف عن دراسة أكثر دقة، لأنها تَمت في زمن وباء نعيشه بكل

تفاصيله وآثاره الواقعية والتي ليس للخيال فيها نصيب، وتتجلى انعكاساته في إدارة العلاقات في المجتمع الجزائري، وقد قيل "ما أشبه الليلة بالبارحة". ومن هذه الديباجة فإن الإشكالية الخاصة بدراسة الأوبئة في الجزائر العثمانية، تتركز في أثر الوباء على علاقات السكان الداخلية والخارجية؟ وكيف تغلغل الوباء في عمق المجتمع؟ وما هي أهم المنافذ التي تسلل منها؟ وما هي سبل التعامل مع الوباء، والتدابير العملية التي اتخذها الحكام، وتفاعل معها أفراد المجتمع في مواجهة وباء الطاعون؟

أما النقطة الفاصلة، فقد أماطت الحجاب عن مدى تأثر الجزائر بالوباء، وما حجم الأضرار على الساكنة، وهل بقيت حياة الناس مستمرة، رغم الصعوبات والأخطار المحدقة بأرواحهم، أو شلت كلية واندثر حالها؟ وكيف تعاملوا مع عباداتهم الجماعية من صلاة وحج وغيرها، وكيف نسجت حياتهم اليومية، وكيف سيروا مشاريعهم الاقتصادية، وحياتهم الاجتماعية الروتينية؟

ولا شك أن كل دراسة تتوخى الأهداف المقصودة، والتي يمكن حصرها في هذا الموضوع التاريخي الهام:

ـ محاولة تشخيص وباء الطاعون في العهد العثماني بالجزائر خلال ثلاثة قرون، والوقوف عند عناصره المنطقية، الأسباب، والوقائع، والآثار المترتبة.

ـ إعداد دراسة مختصرة ومركزة حول الوباء من الجانب العلمي، بعيدا

عن الإسهاب في الحوادث السردية، والتي تستغل لرسم صورة واضحة توحي بالنتائج، والتي لا تكلف الجهد الكبير لكشفها، بل تفرض نفسها من خلال الأثر البالغ.

ـ لفت الانتباه لعدة عناصر، تصلح للبحث ضمن إشكاليات جديدة، عندما تستوعب الوثائق الغائبة ولاسيما في الأرشيفات الأوربية والتركية والعربية فضلا عما هو متناثر في الجزائر.

ـ عرض تجربة تاريخية بإمكانيات متواضعة، وهي نموذج يستفاد منه في مواجهة الأزمات، وتطوير المعاملات، والاعتبار من التاريخ.

إن العلاقات بين الساكنة من الأتراك الحكام، والجزائريين ومختلف الطوائف الوافدة، والأوربيين فيما وراء البحر، والعرب وسكان الجوار، كلها تصنع العلاقات الإنسانية المتكاثفة في السراء من خلال الأوضاع العادية، وفي الضراء زمن الأوبئة والجوائح والمجاعات، والتي نقف عند جزئياتها في هذا السياق التاريخي المتكامل.

**أولا: ـ منافذ دخول الوباء الى الجزائر العثمانية:**

عرفت الجزائر الوباء الذي أطلق عليه قديما اسم الطاعون، منذ سنة1517 م، قبيل انضوائها رسميا في ظل الحكم العثماني، وظلت سليمة، ولم يتجدد الوباء إلا سنة 1530م، ومنذ طاعون 1552 م أصبحت معرضة إلى هذا الوباء الخطير، والذي خلف سنة 1553 م نحو 9000 ضحية، وصار يعرف بالوباء الدائم والمستمر أو

(الوباء المستوطن). [1] وظل مستمرا خلال ثلاثة قرون مع بعض الفترات التي يَسكنُ فيها الوباء ثم لا يلبث أن يتجدد، بسبب العوامل المتعددة التي تبعث فيه النشاط، وحينها يفتك بالمئات من السكان. ويعتبر التواصل التجاري والدبلوماسي بين الجزائر والباب العالي من أهم الأسباب في انتقال الوباء، إضافة التواصل مع الدول الأوربية، والارتباط مع البلدان المجاورة (تونس والمغرب الأقصى)، فضلا عن بلاد المشرق العربي ولاسيما الإسكندرية. وأهم الأسباب والمنافذ التي يتسلل منها الوباء:

**أ ـ دخول الوباء مع مجموعات الحجاج :**

كان الحجاج إلى بيت الله الحرام، يتجمعون أثناء سفرهم في البواخر أو ضمن القوافل البرية، فينتقل الوباء عن طريقهم، مثل وباء شهر ماي 1752 م الذي جلبه الحجاج الذين وصلوا إلى ميناء الجزائر على متن سفينة موبوءة.[2] ومثله الطاعون الذي دام 17 سنة (1557-1585 م) وأثر في وهران وتلمسان ومدينة الجزائر. [3] ولهذا كان ركب الحج مساهما فعالا في نقل الوباء وتفشيه، لأن الركب البري

---

1 - فلة موساوي القشاعي، **الواقع الصحي والسكاني في الجزائر اثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي1518-1871**، وزارة الثقافة، الجزائر، ب ت ن، ص ص79-83-86.

2 - نفسه، ص112.

3 - نفسه، ص86.

الذي يقدم من الإسكندرية، ويستغرق مدة شهر ونصف، وتتجمع فيه حشود كبيرة، من طرابلس وتونس والجزائر، ويمر بقرى ويحتك بقبائل عديدة لا يسلم من إصابة بعض أفراده بالوباء، ونقله معهم إلى بلدانهم. [1]

**ب ـ دخول الوباء عن طريق التجار وضمن بضائعهم :**

إن انتقال الوباء للجزائر أول ما يصيب عمال الموانئ، وأغلبهم من فرقة البساكرة، والأسرى المسيحيين، بحكم إقامتهم في السجن القريب من الميناء. [2] وكان تبادل السلع مع البلدان الخارجية عبر البحر، أو عن طريق القوافل التجارية المتنقلة عبر الحدود ولاسيما مع تونس، سببا بارزا. فنجد على سبيل المثال وباء سنة 1663م انتقل بسبب الجراثيم المحملة على متن سفينة قادمة من الإسكندرية، واجتاح الوباء حينها منطقة قسنطينة وبسكرة والزريبة وسيدي عقبة وصادف شهر

---

1 - خير الدين سعيدي، **المجاعات والاوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني 1700-1830م**، أطروحة دكتوراه علوم، تحت اشراف الدكتور شايب قدادرة، قسم التاريخ، جامعة 8 ماي قالمة، الموسم 2018 -2019، ص92.

2 - ارزقي شويتام، **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني1519-1830**، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص418. H. D. De Grammont, **Histoire d'Alger sous la Domination Turque 1515-1830**, Ed. Leroux, Paris,1887, p 213.

رمضان. [1] وأصاب 10آلاف عبد مسيحي في مدينة الجزائر وعدد كبير من السكان. [2]

وتعرضت الجزائر منذ القرن السابع عشر لهجمات مريعة للطاعون القادم من أوروبا، مثل "الطاعون الكبير" الذي قتل ثلث السكان، ومنه "طاعون الشر" وهو الذي وقع سنة 1671م، وأطلق عليها سنة الشر، والتي يقتل الوباء فيها نسبة متراوحة ما بين 10-20 في المائة من مجموع السكان. [3]

ويحذر قناصل الدول من انتقال الوباء إلى بلادهم، ففي بداية القرن الثامن عشر وقع الوباء بسبب ثلاث سفن جزائرية قادمة من سوسة التونسية، ولما اكتشف الوباء اضطروا إلى رمي الأموات في البحر، وحينها راسل القنصل الفرنسي دولته للتحلي بالحذر من السفن الجزائرية التي تصل ميناء مرسيليا. [4]

**ج ـ انتقال الوباء بسبب الحروب بين الشعوب وبين القبائل:**

انتقل الى الجزائر وباء 1552م عن طريق الأسطول الذي أرسله السلطان العثماني لمساعدة بيلربالي الجزائر صالح رايس، في الحروب

---

1 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص98.

2 - De Grammont, Op-Cit, p 213.

3 - جون ب. وولف، **الجزائر واروبا 1500-1830**، تر أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص158.

4 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص108.

المشتعلة مع الإسبان، وانتشر في الجزائر ووهران وتلمسان، ومعظم مناطق السواحل، وخلف نحو 9آلاف ضحية. [1]

وأصاب الوباء مدينة الجزائر بسبب حرب 1681 م [2] والتي جرت بين الجزائر وفرنسا والتي وقع فيها احتكاك كبير بين الطرفين.[3]

ـ وكانت المحلات العسكرية التابعة للبايلك ـ والتي تُسيرُ لجمع الضرائب ـ سببا في نقل الوباء، كما وقع في قسنطينة سنة 1786م، إذ نقلت المحلة الوباء من الجنوب، وكانت متكونة من 4000 فرد، وعلى إثر رجوعها انتشر الوباء في قسنطينة وسبب كارثة، ووصل عدد الضحايا في الصيف إلى 50 ضحية يوميا. [4]

**د ـ احتكاك البحرية الجزائرية بالعالم:**

منذ استقرار الأتراك في الجزائر، جعلوا للقرصنة في البحر المتوسط مؤسسة قائمة بذاتها، ويشرف عليها رياس البحر، وتأتي بفوائد كبيرة من الأموال التي يغنمها البحارة. [5]

---

1 - ارزقي شويتام، المرجع السابق، ص409.

2 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص100.

3 - عبد الرحمن الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر، 1995، ج3، ص191.

4 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص123.

5 - وليم سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تع عبد القادر زبادية، الجزائر، 2006، ص ص74-75.

وكان للبحرية الجزائرية نشاطاتها في عرض البحار، وبسبب احتكاكها بمختلف الشعوب، ووجود الأسرى من تلك الحملات، ينتقل الوباء بسهولة مثلما وقع في وباء 1786 م.[1] وقيل (جاء الوباء للجزائر، حتى وصل عدد الأموات أحيانا خمسمائة جنازة كل يوم، ويسمى بالوباء الكبير، قيل أنه أتى من بر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية، وظل الوباء بالجزائر إلى سنة 1211 هـ [1796م]).[2]

وكان الوباء ينتشر كاشتعال النار في الهشيم، ويعم البلدان المتقاربة، وقد وصفه الزياني في رحلته من تلمسان إلى الجزائر بقوله: (خرجنا منها إلى مدينة الجزائر فرارا من الوباء الذي حل بها، وكان عاما في العمائر التي بينها وبين الجزائر، فما نزلنا منزلا إلا وجدنا أهله يدفنون موتاهم...).[3] كما أن الوباء الذي انتقل للجزائر عام 1654 م، ودام ثلاث سنوات، نقل العدوى رياس البحر، وعرف بالوباء الكبير كونيا (KONIA)، وقضى على ثلث السكان.(4)

---

1 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص124.

2 - الشريف الزهار، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار**، تح ألأحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص51.

3 - ابو القاسم الزيان، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحراً**، تح عبد الكريم الفيلالي، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1991، ص148.

4 - De Grammont, Op-Cit , p 203.

**هـ ـ نقل العدوى بسبب الفرار من الوباء:**

يفزع الناس من الوباء، ويفر بعضهم إلى المناطق السليمة، وعن طريق حملهم للفيروس، ينتشر الوباء ويعم المناطق البعيدة، وهذا ما وقع في وباء عام 1817م، الذي انتشر بالايالة الجزائرية بسبب الفرار من الحواضر إلى الأرياف في الشرق الجزائري، وانتقلت العدوى إلى عنابة وقسنطينة والقالة وبسكرة، وحمل الوباء بواسطة جماعة البساكرة المصابين الأوائل بالطاعون، وتعدى ذلك إلى الغرب الجزائري ولاسيما مدينة وهران. [1] وقد تجلى هذا الأمر أيضا في وباء 1817م الذي مس مدينة الجزائر، وجعلها شبه خالية من التجارة، لما هرب التجار وأصحاب المحلات من اليهود إلى الأرياف القريبة، والذي دفع الداي إلى إصدار مرسوم يدعوهم إلى العودة لمساكنهم وممارسة نشاطهم من جديد. [2]

**ثانيا ـ التدابير العملية المتبعة لمواجهة الوباء:**

كانت الأحوال في المجتمع الجزائري في زمن الوباء مختلفة بين الإجراءات التي تتخذها الدولة، والتي يلتزم بها أفراد المجتمع، سواء بمحض إرادتهم خوفا على حياتهم وذويهم، أو بإجبارهم على إجراءات

1 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص141.

2 - خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص283.

الانعزال والحجر الصحي، ويمكن الوقوف على أهم الإجراءات المتخذة:

**1 ـ الحجر الصحي (الكرانتينة) :**

وهي كلمة أجنبية (Quarantaine) ذات أصل إيطالي، وفي اللغة التركية (فرانتينة) وتعني أربعين، لأن الوافدين من الخارج ولاسيما المشتبه في إصابتهم بالوباء، يوضعون في الحجر الصحي أربعين يوما حتى تثبت سلامتهم من الوباء،[1] وهو إجراء كان سائدا في الدول الأوربية، كما ورد عند حمدان خوجة: (فكنت رأيت في البلاد الفرنجية انتظام أمورهم واعتنائهم بأمور السياسة في صيانة جمهورهم خصوصا حيث التزموا لدفع الوباء عنهم ما جربوه من الاحتماء والاحتراز بالاستقراء في عدم إدخال الداخل إليهم إلا بعد تحقق البراءة أو الاستبراء، وجعلوا لذلك حكاما في أماكن حصينة مع غاية الاحتياط وسموا ذلك كرنتينة فأصابوا في بعض ما فعلوا...).[2] وأنواع الحجر هي:

---

1 - أحمد السعيد سليمان، **تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل**، دار المعارف، القاهرة، 1979، ص181.

2 - حمدان بن عثمان خوجة، **إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء**، دار الطباعة السلطانية، إسطنبول، د ت، ص03.

**أـ الحجر المفروض من السلطات:** وقد بينه صاحب إتحاف الأدباء، بما تفرضه الدول الأوربية على السفن القادمة على بلدانهم، فتخضع السفينة للحجر أو تطرد، أو ينزل من فيها بعد تجريدهم من لباسهم، وتحرق السفينة أو تغرق في البحر، ويدفعون لأصحابها التعويض من خزينة الدولة، ويلبسونهم لباسا جديدا، ويوضعون في مكان لا يعرفهم أحد لمدة ثلاثة أشهر. [1] فما مدى تطبيق هذه الإجراءات في الجزائر العثمانية؟

ـ الوباء القادم من الإسكندرية عام 1157 هـ/1744 م، على متن سفينة الحجاج، اقتضى الحجر نحو 15 يوما فقط، ثم أجري لهم الفحص، وسمح لهم بالدخول للتأكد من سلامتهم من الوباء، ذكره ابن حمادوش : (وفي ثالث رجب الموافق آخر يوم من يوليه قدم علينا مركب من اسكندرية بالحجاج، وفيه الوباء فمنعهم الباشا من الدخول، حمية من أن يقوم ممرض على مصح، إلى ثامن عشرة، موافق خامس عشر أوغشت، أذن لهم في الدخول، بعد تحقق سلامتهم من المرض المذكور). [2]

---

1 - حمدان بن عثمان خوجة، المرجع السابق، ص42.

2 - عبد الرزاق بن حمادوش، **لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال**، تح أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص121.

كما ان سفينة جزائرية قادمة من أزمير سنة 1809 م، محملة بالبضائع، وبها حالتين من الطاعون، ولكن الحذر الذي كان عند القنصل الفرنسي، منع تفريغ السفينة، فوقى ذلك ايالة الجزائر من الوباء.[1]

ويظهر أن السلطات ليس لها الرؤية الحقيقية لمنع الوباء والسهر عليه في داخل المجتمع، ولا تبذل المجهودات الكافية للقضاء عليه،[2] وقد يصاب المرء بالوباء عدة مرات، وينجو منه مثلما وقع سنة 1793 م لأسير الداي كاثكارت الأمريكي الذي قال في رسالة لصديقه يخبره عن حاله: (هذا هو الوباء الثالث الذي أتعرض له ودائما في السجن).[3]

وقد يتناهى إلى مسامع السلطات أخبارا عن الوباء قبل وصوله، مثل وباء 1783 م الذي مس تونس، فتتخذ الإجراءات اللازمة مثلما دفع صالح باي قسنطينة إلى التأهب واتخاذ الإجراءات الوقائية، ولكن الوباء انقل إلى البايلك في السنة الموالية 1784م، وانتشر في المناطق الساحلية والسهلية، وأودى بعدد كبير من الضحايا ولم تتخلص منه تونس إلا عام 1787 م، وبقي مدة أخرى في الجزائر، وتضررت

---

1 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص134.

2 - جيمس لندر كاثكارت، **مذكرات اسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب**، تر إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص128.

3 - نفسه، ص147.

منه المواشي ورعاتها.[1] وقد أسس الباي دار المرضى في حي سوق الجمعة.[2] وعموما فالسلطة العثمانية تعتمد على نظام الحجر بصفة انتقائية[3] غير مبررة بل تخضع لتقديرات الداي في ايالته والبايلك في منطقته حسب مزاجه وظروفه الخاصة.

**ب ـ الحجر الاختياري الذي يلتزم به أفراد الشعب:** وهو ناجم من الوعي الذي يكون عليه الفرد، وحسب ثقافته التي تدعوه إلى الاحتراز وطلب السلامة، وقد عرض حمدان خوجة تجربته وسجلها، بقوله: (وأنا العبد الحقير حضرت وقوع الوباء بالجزائر نحو عشرين سنة كما سبق والتزمت التحرز بأقل مما يحتاط الفرنج، فكنت أصلي الجمعة وأحضر جنائز أصحابي من غير أن اقتحم مجتمع الناس ومن غير أن أمس أحداً ولا قماشا ثم أرجع فأتبخر فسلمني الله أنا وجميع من معي، وبمثل هذا تثبت التجربة وتتحقق السببية مع الإنصاف).[4]

**2 ـ المكوث في البيوت:**

ربما تتهاون السلطات في تطبيق الحجر على القادمين في السفن البحرية، مثلما وقع في الوباء سنة 1817 م، بقدوم سفن، وفي أوقات متباعدة،

---

1 - ارزقي شويتام، المرجع السابق، ص ص411-412.

2 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص367.

3 - خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص88.

4 - حمدان بن عثمان خوجة، المرجع السابق، ص33.

من أزمير وإستانبول وبيروت، ونقلت بعضها الوباء، عندما رست في ميناء الجزائر. [1] وحينئذ اضطر السكان إلى اتخاذ احتياطاتهم بأنفسهم، بتطبيق طرق الاحتراز الشعبية، وأهمها المكوث في بيوتهم في فترة انتشار الوباء.[2]

**3 ـ الالتجاء إلى المناطق الداخلية:**

ويضطر بعض سكان المدن إلى الخروج نحو مناطقهم الأصلية في الأرياف والجبال والصحراء، وهي المناطق التي سلمت من الوباء،[3] وقد يتسرب إلى الأحياء الشعبية لكثرة الأوساخ والقاذورات، ومنها مذابح اليهود ذات الروائح الكريهة. كما أن العمال من أصحاب المناطق الريفية يتركون المدن إلى قراهم، ويكون ذلك سببا وجيها في حصول العدوى وعموم الوباء عندهم. [4]

**4 ـ ممارسة معتقدات وعادات شعبية لعلاج الوباء:**

كانت الثقافة الصحية عند المسلمين في هذا العصر تعتمد على الطب الشعبي، وتعتبر الأعشاب هي الوصفات الطبية الناجعة، كاقتراح جلد

---

1 - Jean Marchika, **La Peste en Afrique Septentrionale, Histoire de la Peste en Algérie de 1363-1830**,thèse de médecine, a Alger 1927, p .152

2 - ارزقي شويتام، المرجع السابق، ص422.

3 - المرجع السابق، ص422.

4 - نفسه، ص419.

الحيوان المسلوخ، أو الاتجاه نحو الحمامات المعدنية لعلاج آثار الوباء وما فيه من تقرحات. إضافة إلى زيارة المرابطين والأضرحة يطلبون فيها الشفاء.[1] وكان بعض المرابطين يرجعون الوباء أحيانا إلى الغضب الإلهي من فجور الحكام، فقد نسبوا الطاعون في عهد الداي علي شاوش " إلى سياسته المعادية لله".[2]

والتصرفات السابقة وغيرها، يعتقد أصحابها دفع الوباء، مثلما فعله اليهود، بغسل أمواتهم بالماء البارد ثم الساخن المعطر بالأعشاب، وتركوا البكاء، معتقدين أن الدموع المسكوبة على الميت تزيد في عمر الوباء.[3] كما أن وباء 1787م، الذي مس مدينة الجزائر، كان عدد ضحاياه متفاوتا كما يلي: عدد المسلمين 315 ضحية، وعدد المسيحيين 20 مسيحيا، وعدد اليهود أربعة فقط، وسبب قلة عدد اليهود لأنهم التزموا الإجراءات الوقائية التي اتخذها مقدمهم، ومنعهم من التجارة في الملابس القديمة لأن أصحابها من ضحايا الطاعون. ولكن اليهود لاحظوا أن الوباء يهدد حياتهم، فقرروا تزويج جميع شبابهم البالغين، محافظة على نسلهم، وكان عدد الشباب المتزوج 400 شاب وشابة، ولكنهم ماتوا جميعا ولم يبق منهم سوى 10 أزواج، والسبب عدم احترامهم

1 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص ص292-305.

2 - جون ب. وولف، المرجع السابق، ص386.

3 - ارزقي شويتام، المرجع السابق، ص423.

الإجراءات الوقائية وانغمسوا في التجارة طلبا للربح على حساب حياتهم. [1]

**5 ـ العلاج في المستشفيات:**

لم تكن المستشفيات كثيرة، بل هي مصحات وملاجئ أول من أقامها البايلربي حسن باشا ابن خير الدين بربا‌روس، ومنها مستشفى صغير للانكشاريين والشيوخ العجزة يرجع إلى تاريخ 1544م، وغالبا ما تكون عاجزة عن استيعاب المرضى. [2]

أما المسيحيون فكانوا يتجهون نحو المستشفيات التابعة لدولهم في مدينة الجزائر،[3] ومنه المستشفى الذي أقامته إسبانيا للعبيد الأسرى الأجانب، وكان بجانب السجن الذي يأوي الأسرى في الليل، وهو مفتوح على السجن، وفي زمن الوباء يستقبل المرضى الذين يلقون حتفهم في غرفه، ومنهم من يتلقى العلاج ويخرج سليما معافى.[4]

ويقوم على هذه المستشفيات قساوسة، يعتنون بالأرقاء حتى لا يفقدوا عقيدتهم. ولكن المستشفى كان مفتوحا أيضا لرجال التجارة البحرية من المسيحيين وحتى بعض السكان المسلمين. [5]

---

1 - ارزقي شويتام، المرجع السابق ، ص112.

2 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص ص359-360.

3 - ارزقي شويتام، المرجع السابق، ص423.

4 - جيمس لندر كاثكارت، المصدر السابق، ص ص102-103.

5 - جون ب. وولف، المرجع السابق، ص153.

**6 ـ نشر الوعي والثقافة الصحية:**

لقد عانى سكان مدينة الجزائر وحواضرها من الطاعون الذي أودى بحياة الوجهاء والعلماء والأطباء، ولا سيما في الحواضر التي يزدحم فيها الناس مثل مدينة الجزائر وتلمسان وقسنطينة، وذكر الكثير منهم ابن مريم صاحب البستان،[1] والفكون في منشور الهداية،[2] الأمر الذي نبههم للكتابة حوله بذكر علاجه، وحصر طرق الوقاية والاحتراز،[3] وأهم ما ألف يومئذ:

ـ قصيدة أحمد بن سحنون الراشدي التي ذكرها في كتابه (الأزهار

---

1 - الذين توفوا بوباء الطاعون، منهم محمد بن محمد بن موسى الوجديجي 981 هـ / 1573م، ومحمد بن عباد الكبير العمراني الشريف سنة 964 هـ /1556م، وكان شابا، ومحمد بن زائد القبلي الجادري التلمساني 982هـ/ 1574م، ومحمد بن محمد بن الحاج بامزيان 964هـ/1556م وهو شاب تائب. أنظر: ابن مريم التلمساني، **البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان**، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، الصفحات 265، 276، 282، 305.

2 - ذكر الفكون في منشوره الذين ماتوا بالوباء، وهم بركات المسبح القسنطيني سنة 982هـ/1574م، والبقية كلهم في سنة 1031 هـ/1621م وهم خمسة من أهل الفضل والصلاح محمد التواتي، وعبد اللطيف بن عبد الكريم بن بركات، ومحمد بن علي الطيار، وأبو الحسن علي بن حمود، وأبو عبد الله محمد الباقلمامي، انظر: عبد الكريم الفكون، **منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1987، الصفحات 47، 59، 80، 105، 161، 209.

3 - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998، ج2، ص423.

الشقيقة المتوضعة بعرف العقيقة)،[1] وكانت حول الطاعون الذي أصاب مدينة معسكر عام 1202 هـ / 1787م، والذي اضطره الى مغادرة المدينة وترك فيها أوراقه ومخطوطاته.

ـ كتاب (ما رواه الواعون في أخبار الطاعون) لأبي راس الناصري،[2] وعني وباء معسكر السابق، وتحدث فيه عن أضرار الطاعون.

ـ رسالة (الدر المصون في تدبير الوباء والطاعون)، لمحمد بن رجب الجزائري، مستوحاة من وباء عام 1200 هـ / 1785م، الذي مس الجزائر، والكتاب عبارة عن التدابير التي يتعامل بها في الوباء جمعها من كتب الطب المختلفة مثل تذكرة داود الأنطاكي والقانون لابن سينا.[3]

---

1 - **أحمد بن سحنون الراشدي:** شاعر صوفي وأديب مؤرخ، عاش بمعسكر في أواخر القرن الثامن عشر، له مؤلفات عديدة منها الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، وكتاب عقود المحاسن، توفي عام 1796م. انظر: رابح خدوسي وآخرون، **موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين**، منشورات الحضارة، الجزائر 2014، ج 1، ص128.

2 - **أبوراس الناصري:** هو محمد بن أحمد بن عبد القادر الراشدي المولود بمعسكر بالجزائر سنة 1737م، وهو مؤرخ ومحدث، وعالم بالشريعة، وله نحو 50 كتابا، توفي عام 1824م. انظر: عبد الغني عيساوي، **الإعلام بأعلام الجزائر من كتاب الأعلام للزركلي**، أوراق ثقافية، ط1، جيجل – الجزائر، 2016، ص122.

3 - أبو القاسم الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص ص320-321.

ـ ألف ابن حمادوش رسالة في الطاعون الذي مس الجزائر في زمنه.[1]

ـ إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراز من الوباء، من تأليف حمدان بن عثمان خوجة، في حدود عام 1252 (1837)،[2] ورد فيه عن المتهاونين والمستخفين من الوباء في الزمن الذي عاشه قبل الاحتلال وبعده، وقدم بالأدلة الشرعية ما يجب فعله للوقاية والنجاة من آثاره الوخيمة.

والجدير بالذكر أن هذه التأليفات لا تعكس أثرا في الميدان، فالجزائر كانت تعاني من قلة الأطباء عموما، فأطباء السلطة العثمانية غالبيتهم من الأسرى والعمال الأوربيين، والفئة الشعبية، كان يمارس الطب فيها العوام، ويشتغلون بالطب الشعبي.[3] ويكفي تدليلا على ذلك في مذكرات الهولندي "بفايفر" الذي كان أسيرا في مدينة الجزائر، في السنوات الخمس الأخيرة من العهد العثماني، ولما كانت له مبادئ طبية صار الطبيب الخاص في القصر، ولعله الطبيب الوحيد في الايالة، ولما اقتحم الجيش الفرنسي المدينة وجد نفسه الوحيد الذي

1 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص431.

2 - نفسه، ج7، ص253.

3 - خير الدين سعيدي، المرجع السابق، ص102.

يجري العمليات الجراحية ويسعف الجرحى.[1]

**ثالثا: أثر الوباء على العلاقات في الجزائر العثمانية:**

لا شك ان المجتمع يتأثر بما يعتريه من وقائع، ووباء الطاعون القتال، يمثل الخطر الداهم الذي هدد المجتمع بالتشتت والاندثار، ومس العنصر الفاعل في المؤسسات، ولكن العلاقات استمرت مع بعض التعثر باختلافها بين البيئات والأزمنة، مع الفارق بين القطاعات:

**1 ـ الحياة السياسية والإدارية:**

بقيت الحياة السياسية، والمعاملات الإدارية متواصلة في دار السلطان التي تستقبل الوفود والسفراء، وتسيير الشؤون الإدارية، وكان قصر الداي يستقبل العمال والعبيد الذين يخدمون في القصر ويختلطون بغيرهم في سجن الأسرى، وهذا من شأنه نقل العدوى، والتي أودت بعدد من الدايات والبايات.

ولما كان البايلرباي صالح رايس في بجاية ينتظر الأسطول العثماني حتى يسير به إلى وهران لمحاربة الإسبان، كان الوباء في مدينة الجزائر، بل هاجمه في نواحي بجاية فمات هناك في موقع تامنفوست وهذا في

---

1 - سيمون بفايفر، **مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر**، تر أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص ص86- 95.

جوان 1556م.[1] واستمر الجيش في نشاطه، ولم يكن الوباء عائقا في مسيرته، وعين باشا جديد وهو حسن قورصو الذي توجه على رأس الحملة إلى وهران لتأديبها.[2]

وربما يتولى الباشا حكم البلاد لمدة قصيرة، ويقضي عليه الوباء في بداية حكمه، مثلما كان في حق يوسف باشا الذي كان عمره ستة وعشرون سنة، وتوفي بالطاعون بعد تعيينه بستة أيام،[3] فخلفه قايد مليانة يحي باشا لمدة ستة أشهر ابتداء من شهر ربيع الأول إلى شعبان 964هـ / من جانفي إلى ماي 1557م، ولكنه مات هو الآخر بالطاعون.[4]

كما وصل وباء عام 1817 م إلى قصر الداي علي خوجة وأودى بحياته، وهذا بسبب العجز عن تطبيق الإجراءات الصارمة في الوقاية والحجر الصحي،[5] ورغم أن هذا الداي قد اهتم بقصره الجديد في

---

1 - صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830**، دار هومة، ط2، الجزائر، 2007، ص ص80-81.

2 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص89.

3 - Fray Diègo de Haedo, **Histoire des Rois d'Alger**, Trad par Delmas De Grammmont, éd Adolphe Jourdan, libraire-Editeir,Alger ,1881, p 111.

4 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص90.

Fray Diègo de Haedo, Op-Cit, 112

5 - ارزقي شويتام، المرجع السابق، ص420.

القصبة، ونقل إليه الإدارة والسكن،[1] ونقل إليه الأموال الطائلة،[2] وقام بأعمال تنظيمية جليلة لكنه عجز في اتخاذ الإجراءات الوقائية لسلامة حياته، رغم أن ولايته كانت قصيرة لم تتجاوز ستة أشهر، وتوفي في الفاتح مارس 1818 م.[3] وهو الوباء الذي دام عامي 1817-1818م ومات في مدينة الجزائر وحدها 14 ألف نسمة، وثلثي سكان عنابة، والمناطق الصحراوية والجبلة.[4] وذكر الزهار أنه مات في يوم واحد مائة شخص : (وفي هذه السنة ذهب الناس أفواجا للحج، ومنهم الفقير إلى ربه وكان الوباء قد اشتعلت ناره وفي يوم سفرنا، وقت الضحى، وصلت ماية (كذا) جنازة).[5]

ولما تولى حسين داي، مازال الوباء على أشده، والذي أودى بحياة الداي قبله، وكانت البحرية الجزائرية تتصل بالسفن في عرض البحر، قدمت له نصيحة سنة 1818 م من قبل سفير الولايات المتحدة بعدم صعود الضباط لتلك السفن وخاصة السفن التجارية الأمريكية، ما دام الوباء موجودا في البلد، وإن إجراءات الحجر الصحي على السفن

---

1 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص328.

2 - حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، تع محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص153.

3 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص331.

4 - صالح عباد، المرجع السابق، ص222.

5 - الشريف الزهار، المرجع السابق، ص144.

باهظة التكاليف، فأبدى الداي قبوله بطلب الولايات المتحدة، ولكن أصر على زيارة تلك السفن حتى يعرف ضباطه إن كانت لعدو أو صديق، مما جعل الارتباط والاحتكاك متواصلا، وهو أحد الأسباب لانتشار الوباء.[1] ولكن بعد ذلك اقتنعت الجزائر بعدم إرسال القراصنة في عرض البحر ما دامت تعاني من وباء الطاعون.[2] وكان الوعي عند الدبلوماسيين الأجانب كبيرا، فالقنصل الفرنسي دوفال يغيب عن الاحتفال الرسمي لعيد الفطر لعام 1817 م خوفا من العدوى بالوباء.[3]

وكانت إدارة بيت المال في زمن الطاعون، أكثر نشاطا من سائر الإدارات الأخرى، فتقوم بإحصاء الموتى، وتعمل على منع الفوضى التي قد يتسبب فيها الموت المتواصل، وتتولى أمر التركات المهملة، وتسهر على تقسيم الميراث.[4]

أما البايلك فلم يسلم من انتشار الوباء منذ عام 1557 م في وهران وتلمسان، وتوفي من أثره مولاي حسن حاكم تلمسان السابق. وصار الوباء مستوطنا ولاسيما في تلمسان وأودى مستقبلا بعدد من العلماء

---

1 - وليام شالر، **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824**، تع إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص ص176-177.

2 - نفسه، ص177.

3 - Jean Marchika,Op-Cit, p157.

4 - حمدان بن عثمان خوجة، المـرآة، ص136.

والوجهاء والسكان.[1] كما انتشر الوباء عام 1622 م في بالك قسنطينة ومات بسببه الباي حسن.[2] وتسرب الوباء إلى إقليم الغرب الجزائري من إسبانيا سنة 1737م، وأودى بحياة باي وهران يوسف بوشلاغم.[3]

**2 ـ استمرار الحياة الاجتماعية:**

كانت الحياة الاجتماعية تسير بشكل عادي، ففي الثكنات تمارس بصفتها الطبيعية، وهذا ما جعل الوباء سنة 1786 م يقتل الكثير من الجنود.[4] كما أن العبيد كانوا في زمن الوباء يمارسون نفس الأعمال الشاقة، ولا يخفف عليهم منها أي شيء، فما دام العبد على قيد الحياة، يتحتم عليه العمل، وهذا العمل المشترك كان سببا في ازدياد العدوى.[5]

بل كان الجدل واقعا بين الناس، فمنهم من يستخف بالوباء، ويقدم التوكل عل الله، ويفوض الأمر اليه، ويستدلون بمن عافاهم الله منه، وإن وقع الوباء فهو شهادة، ونجد من العلماء من ناقش ذلك، وبين حجم الخسائر التي أصابت الناس من جراء هذا الفهم والممارسة، ومنهم

---

1 - Jean Marchika,Op-Cit, p-29 .

2 - Ibid, p41 .

3 - Jean Marchika,Op-Cit, p78.. فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص109.

4 - جيمس لندر كاثكارت، المصدر السابق، ص100.

5 - نفسه، ص ص109-112.

حمدان خوجة الذي شهد الوباء لمدة عقدين، وكيف شوه الوباء (خلقة الجزائر بعد أن كانت عذراء مستحسنة، فأفقرت معالم البلاد وتشوشت أحوال العباد، واضمحل العلم وذووا الاستعداد وانقرض من العساكر من كان عدة في العمران والفلوات، وخلف جميعهم بعد العناء والتعب، خلف أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات فغشي يومئذ فيها الفساد واكتهل واتسع بالخرق ولم يبق للراقع محل، فيا لها من رزية تقشعر لها الجلود الحساسة، ويا لها من خسارة ومبدؤها ايراد ممرض على مصح كما أن مبدأ الحريق شرارة).[1] ولكن هناك استثناءات، وممن يرعى القواعد، ويخاف العواقب.

**أـ تجنب الالتقاء بين الناس:** كانت قافلة الحجاج المغربية التي كان بها الرحالة العياشي، والذي صادف وباء 1663م، وكان عائدا من ليبيا، فلم يدخلها وتجنب زيارة مسجد سيدي عقبة والوقوف على ضريحه، خشية العدوى، ولكن العياشي توفي بعد ذلك بسبب وباء بالمغرب الأقصى سنة 1679.[2]

**ب ـ اضطراب أحوال الناس:** وخوفهم من الوباء قبل وصوله إلى بلدانهم، مما جعل بعضهم يلوذ بالفرار، وقد سألوا الشيخ العياشي المغربي عن ذلك في بلاد الزاب، وبقي حائرا في جوابهم، وعلل

1 - حمدان بن عثمان خوجة، اتحاف الادباء، ص04.

2 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص ص98-99.

الجواز قبل وصول الوباء إليهم، ومما قاله : (... إذا كان القصد الفرار منه ولو لم يطرق البلد فتوقفت في ذلك إذ لم أر نصا، وقلت لهم: مقتضى قول من علل حرمة الفرار لما يؤدي إليه من ضياع المرضى وعدم القيام بأمرهم الذي هو واجب أن ذلك يجوز قبل وصول الوباء إلى البلد، ومقتضى قول من علل بأنه شك في المقدور وعدم ثقة بالله أن لا يجوز، وربما رخصت لهم في الخروج وقوفا مع ظاهر لفظ الحديث، ثم بعد ذلك رأيت الإمام الحطاب في كتاب الطواعن جعله محل نظر ورجح الجواز، والله اعلم)،[1] ومع شدة الوباء كان الناس يسألون عن الجواز من عدمه، ويتحرون الحكم الشرعي. وهذا الحال جعل ركب الحج يتوجس خيفة مما عليه حال بلدة سيدي عقبة التي تأكدوا إصابتها بالوباء، فتجنبوا دخولها احترازا ومما ذكره العياشي (... وفي الغد جئنا لبلدة سيدي عقبة وتحققنا الوباء فيه، وفي البلاد التي في أطرافه وفي بسكرة، ولم ندخل لزيارته وبتنا بينه وبين بسكرة). [2] وإن للحجاج رغبة في زيارة الصالحين ولاسيما ضريح سيدي عقبة والصلاة في مسجده، ولكن تعذر ذلك خوفا من الوباء الفتاك. وذلك الحذر لم يمنعهم من العدوى، والتي ظهرت في مسير

1 - عبد الله بن محمد العياشي، **الرحلة العياشية 1661-1663**، تح سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي، ط1، أبو ظبي، 2005، ص538.

2 - نفسه، ص539.

طريقهم، فقد مات للركب المغربي أحد الحجاج وأصله من سجلماسة، لما وصلوا إلى أولاد جلال متأثرا بالطاعون.[1]

**ج ـ التعامل مع موتى الوباء:** وقد يُكتشفُ الوباء أثناء السفر، وعلى ظهر السفينة، ويموت الموبوء، ولا بد من القيام بكل الإجراءات اللازمة، ثم يرمى بعيدا في البحر، فليس هناك موضع للدفن، وهذا ما وقع في عرض البحر قرب جبل طارق، ويقول ابن حمادوش عما وقع في رحلته، من منعهم من النزول لأن الخبر وصلهم بوجود الوباء بالجزائر: (... قال ابعد عن المراكب ولا ينزل أحد إلى البر، ولما كان من أهل الجزائر من وبي (كذا) ولم يدر أن أحد تجاره مضروب بها راقد. نخرجنا إلى الموضع الذي أمرنا. وبقينا هناك بقية يومنا والخميس).[2] ولم يدم ذلك كثيرا فمات المصاب بالوباء، وكان التعامل معه على الشكل التالي: (ولمضي أربعة أدراج من غروب شمس ليلة الجمعة مات الحاج عبد القادر المذكور بالوباء شهيدا، رحمه الله يصلي من غروب الشمس إلى أن سجد، فمات في سجوده، رحمة الله عليه. وكفناه في ساعته وغسله الحاج عبد الرحمن التطاوني، وصليت عليه إمام مع الجماعة كلهم بعد صلاة العشاء. ونزل معه مغسله

---

1 - مولاي بالحميسي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981، ص106.

2 - عبد الرزاق بن حمادوش، المصدر السابق، ص30.

وآخرون من النصارى في الفلوكة إلى أن بعدوا عنا وربطوا معه شكارة من رمل فثقلوه بها والقوه في البحر وأتوا.)[1]

**د ـ بقاء العبادات على حالها:** كان ركب الحج الجزائري والمغربي على حد سواء في حال حسنة ودخلوا البلاد بدون حرج، وهذا سنة 1650م كما ذكر العياشي.[2] ويوم اشتعال الوباء في مدينة الجزائر عام 1818 م، سمح الداي حسين لمراكب الحج بالإقلاع، وعين أمينا عليها، ودفع له المال الخاص لفقراء الحرمين الشريفين.[3]

وقد أكد حمدان خوجة الذي كان يصلي في المسجد، أن صلاة الجمعة تقام بدون انقطاع. ولكن عندما يشتد على الناس وتخور قواهم، ويكثر القتل فيهم يهجرون المساجد مضطرين مثلما وقع في بسكرة التي كان الوباء بها قاتلا خلف نحو 70 ألف ضحية سنة 1650م، مثلما ذكر العياشي عند عودته وتحققنا الوباء فيه إلى بلاده مارا بمدينة بسكرة (ولما دخلت المدينة عقبه، فوجدنا أكثر حوماتها خالية، ومساجدها داثرة، ولقيت بهذه المدينة سيدي محمد الصالح وهو رجل من أهل الخير منفرد في مسجد له بإزاء داره يلازم فيه الصلوات الخمس

1 - المصدر السابق، ص ص30-31.

2 - عبد الله بن محمد العياشي، المصدر السابق، ص535.

3 - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص144.

ويجتمع إليه ناس من أصحابه يذكرهم ويعلمهم...).[1]

**3 ـ التأثير على العلاقات الاقتصادية:**

حدث اضطراب في العلاقات الاقتصادية في الجزائر، في الفترة ما بين منتصف القرن 17م وإلى بدايات القرن 19م، بسبب انتشار الأوبئة، والذي أدى إلى انخفاض عدد السكان، وانعكس سلبا على القطاعات الاقتصادية المختلفة، وما يديرها من أيدي عاملة، وصاحبها انتشار القحط والمجاعة، وارتفاع الأسعار، وغلاء المعيشة.[2]

**أ ـ القطاع التجاري:** أثر الوباء على النشاط التجاري، فأقفرت الأرياف من الأيدي العاملة في الزراعة، وانخفض الإنتاج فعلى سبيل المثال اضطر سكان سهل عنابة الخصب بسبب وباء 1786 م إلى التنازل عن نصف المحصول لمن يقوم بحصاد حقولهم.[3]

وإذا أخذنا القمح نموذجا، والذي يعتبر من المحاصيل الجزائرية الهامة، وتنتج منه الايالة في معظم السنوات زيادة تكفي للتصدير،[4] نجده في أواخر القرن الثامن عشر 1787-1791م، يوجد فائض في

---

1 - مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص102.

2 - ناصر الدين سعيدوني، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية**، نشر حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الحادية والثلاثون، جامعة الكويت، 2010، ص48.

3 - نفسه، ص49.

4 - وليم سبنسر، المرجع السابق، ص ص143-144.

الإنتاج بسبب تراجع عدد الأوربيين، خوفا من الوباء، وانخفاض عدد المستهلكين من الأهالي، بينما في بقية الفترات نجد انتشار المجاعات والجفاف والقحط والجراد بعد الوباء. [1]

ولما تدهورت الأحوال الصحية في سنة 1720 م بالايالة الجزائرية، أدى ذلك إلى قطع العلاقات التجارية بين الجزائر وفرنسا، فقد اكتسح الوباء مدينة مرسيليا وخلف الآلاف من الضحايا.[2]

أما وباء عام 1755م فقد عرقل النشاطات التجارية بين بالك قسنطينة وتونس التي فرضت الحجر الصحي على كل السلع القادمة من بايلك الشرق الجزائري.[3]

ولكن بعض التجار اليهود في وباء 1787م، مارسوا نشاطهم في بيع الملابس القديمة التي يكسبون منها الكثير، رغم الخطورة التي تشكلها تلك الملابس في نقل العدوى.[4] بل ربما نجد الداي نفسه، وانطلاقا من المحافظة على التجارة، رفض الحجر الصحي كما حدث في وباء 1740م، الذي نقلته سفينة من الإسكندرية، ونبه نائب القنصل الفرنسي بوجوب الكارنتينة على الطاقم والبضائع، ولكن

---

1 - ارزقي شويتام، المرجع السابق، ص ص423-424.

2 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص107.

3 - Jean Marchika,Op-Cit, p101-102..

4 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص445.

الداي إبراهيم رفض ذلك وأمرهم بإنزال البضائع المعدية، وتسويقها وهذا جعل أول المتضررين العامل الذي فتح أول البضائع، وانتشر الوباء وخلف خسائر بشرية هامة.[1]

**ب ـ القطاع الزراعي:** بسبب الاضطرابات التي شلت حركة السكان نتيجة للوباء، انعكس سلبيا على العمل والإنتاج الفلاحي، والذي خلف مجاعات عديدة مثلما حدث في وباء 1702م.[2] إضافة إلى ارتفاع الأسعار وقلة القدرة الشرائية، والتي أثرت كثيرا على الطبقات المعدومة في وباء1718 م.[3]

وكانت مدينة قسنطينة أحد البؤر التي أثر فيها الوباء، على الزراعة والإنتاج، ففي خلال عامي 1602-1603 م، قتل الكثير، وأصيبت بالقحط والجفاف، ولمدة تسع سنوات كاملة مع المجاعات الشديدة.[4] كذلك طاعون 1794م تسبب في مجاعة فضيعة، ارتفع صاع القمح إلى 15 فرنكا، وكان سابقا لا يتجاوز 01 فرنك فقط.[5]

---

1 - Jean Marchika,Op-Cit, p79-80.

2 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص438.

3 - De Grammont, Op-Cit , p 278-279.. فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص438.

4 - محمد الصالح العنتري، **فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها**، تح يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص33.

5 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص414.

وكل هذا بسبب الركود والفشل الذي اعترى العلاقات وأثر على النشاط الزراعي واضطرابه.

**ج ـ القطاع الصناعي:** فقد تضرر بسبب تناقص عدد الحرفيين والصناع من جراء الوباء،[1] ونجد قطاع النسيج مسته الخسارة، إذ سجل وباء 1787 م ارتفاع في كمية الصوف المصدر للخارج من ميناء مدينة الجزائر وعنابة، لأن عددا من العاملين في هذا القطاع ماتوا بسبب الوباء، وكذلك الذين يصنعون الأحزمة، فتدهورت تلك الصناعات والتي كانت مصنوعاتها مفضلة لجودتها لدى الدول الأوروبية. [2]

**رابعا: انتهاء الطاعون في الجزائر العثمانية:**

كانت سنة 1822 م من أكبر الأوبئة وأشدها وآخرها، وفي كل يوم يحصد العشرات، وأدى إلى انهيار ديمغرافي كبير في الجزائر، حتى زال في شهر أوت. [3] ووصل عدد الموتى إلى 2262 ضحية، واقترن بظاهرة غريبة وهي إصابة الحيوانات بالوباء، حيث تتعفن الدمل ثم تموت مثلما يموت الرجال. [4]

---

1 - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص49.

2 - ارزقي شويتام، المرجع السابق، ص ص423-424.

3 - فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص ص156-158.

4 - Jean Marchika,Op-Cit, p179.

وترجع أسباب اختفاء الوباء -المنطقية - في الجزائر ما بين 1822 - 1830 م، إلى قلة الوافدين من الولايات العثمانية ولاسيما منذ 1826م. إضافة إلى الحصار البحري الفرنسي على الجزائر والذي منع الاحتكاك بمختلف الشعوب، فمنع التجار والحجاج والطلبة والجنود والقراصنة من التنقل في البحر المتوسط. [1]

**ـ الخلاصة:**

عاشت الجزائر في التاريخ الحديث كغيرها من البلدان، حالات انتشار وباء الطاعون والذي نخر في جسد المجتمع الجزائري، وخلف آثارا مأساوية، سجلها المؤرخون، وأكدتها الوثائق، وتمت دراستها اليوم، في وضع مشابه تمر به الجزائر بوقوع وباء كورونا، والذي سهل لنا هذه الدراسة، وعقَّدَ بعض فصولها، لأن العناصر مستوحاة من الواقع الحاضر، والنتائج تم وضعها مما صرحت به الكتابات المختلفة، ويمكن الوقوف عند النتائج والملاحظات التالية:

ـ إن سبب الوباء يبقى مجهولا، لأن أسباب انتقاله ـ عادة ـ ترجع إلى أقرب حادث يكتشف فيه، وليس ذلك هو الحقيقة، لأن الفيروس قد يحمله الشخص ولا يؤثر فيه، ويضر غيره، ومن هذا المنطلق، يُرجعُ المؤرخ السبب إلى سفينة قادمة من دولة أجنبية، لأنهم اكتشفوا على متنها حالة إصابة بالطاعون، أو يظهر ضمن وفد

1 - ارزقي شويتام، المرجع السابق، ص416.

من الحجاج. ومثلما تستقبل الجزائر الوباء المعدي، تتحرى الدول الأخرى ما يصلها من الجزائر، وربما تلجأ إلى رد السفن على اعقابها بمجرد سماعهم بانتشار الوباء فيها في ذلك العام.

ـ ليس للوباء منفذ واحد، بل يسري في أكثر من مجال وحال، فقد ينقله الحاج من البقاع المقدسة أو أثناء صحبة الطريق، والجندي في الميدان في عرض البحر، أو عند خروج المحلات العسكرية داخليا لجمع الضرائب من الساكنة، أو من خلال التجار الذين يحملونه مع بضائعهم المجلوبة أو المصدرة، أو مع القوافل التجارية التي تجوب الفيافي ونتواصل مع الدول المجاورة، تونس وطرابلس والمغرب الأقصى.

ـ يعتبر الحجر الصحي "الكرانتينة"، أهم خطوة عملية في التصدي للوباء، ويتم بغلق الحدود البحرية، والامتناع عن استقبال السفن والبضائع، وهذا تم بنسب بسيطة، وبشكل انتقائي، مراعاة لشؤون الناس ومصالحهم الاجتماعية والاقتصادية، بتدبير من السلطات الحاكمة. أما عموم الناس، فمنهم المجتهد باستعمال إجراءات الحجر الخاصة، فيحرص على التقليل من الاختلاط بغيره إلا للضرورة الملحة، والمكوث في البيت، والاستمرار في ممارسة حياته الاجتماعية، بينما يفضل آخرون المحافظة على أعمالهم والسعي الحثيث إليها، والباعث على ذلك هو العقيدة الراسخة لديهم، لأن القدر النافذ لا مرد له، والوقت يتطلب منهم التوكل على الله فقط، ولما يستفحل الوباء ويعم،

تجدهم يهرولون إلى الأرياف والجبال، او يفرون إلى الصحراء البعيدة.

ـ يفضل أغلبهم طرق العلاج، التي يرعاها الطب الشعبي، والعلاج الروحي، الذي يلتمسونه عند المرابطين، الذين يرقونهم ويرشدونهم إلى تعليق التمائم، وتناول الأعشاب الطبية. ورغم أن سبل الوعي توفرت بوجود العلماء الذين كتبوا عن الوباء، إلا أن المجتمع كان يعاني من ندرة أطباء الميدان، ولم يكن لهم وجود بتاتا، ويتساقط العشرات في السجون والمستشفيات دون منقذ لهم من الهلاك.

ـ لم يؤثر الوباء على نشاطات المجتمع الأساسية، ربما يقلل من فاعليتها، ويشل جانبا من إحدى القطاعات، ولكن الزراعة استمرت في إنتاجها، والصناعة ولو بشكل محتشم، والتجارة من باب أولى، لأن فيها قوت الناس ومطالبهم. وبقي الناس يمارسون عباداتهم وهي الصلاة في المساجد، وتنظيم رحلات الحج في بؤرة الوباء ولم يثنهم الخوف على حياتهم، لأن ثقتهم في الله هي الدافع لذلك السلوك.

ـ إن إجراءات الحجر الصحي التي اعتمدها الحاكم، ونفذتها الرعية بمحض إرادتها، لم تمنع وصول الوباء إلى قصور الحكام من الدايات والبايات، وأودى بحياة بعضهم. كما سجل بعض الحالات في ركب الحج المغربي، رغم أخذهم الاحتياطات، وحذرهم الشديد من العدوى، وابتعادهم عن دخول مدينة بسكرة التي مسها الوباء، لأنه لا يغني حذر عن قدر.

ـ إن الشلل الذي مس الحياة الاقتصادية، وخلف آثارا شديدة على الإنتاج الزراعي بالخصوص، وتسبب في موت الفلاحين وهجرانهم الأرض وهروبهم إلى أماكن أخرى، ولكن المفارقة العجيبة أن الإنتاج كان فائضا في بعض الأحيان بسبب انقطاع التجارة الخارجية، أو سجل في أوقات أخرى قلة وندرة في المزروعات والغذاء الأساسي من قمح وغيره، وهذا يضيف المجاعة التي تزيد عدد الأموات.

وعموما فان المجتمع لم يستسلم للوباء، وتعامل معه بشتى الطرق، ونجح إلى حد بعيد في استمرار النشاطات ولاسيما في أوقات الامتداد الكبير للوباء، والذي اقتضى منهم التعايش والصبر، حتى يغير الله حالهم إلى ما هو أفضل.

# الخـاتمة

إن التاريخ الاجتماعي للجزائر في العهد العثماني، له ارتباط وثيق بعناصر الهوية، والذي تجلت فيه الشخصية الوطنية في أسمى معانيها، واتضحت صورة التكامل بين المجالين، وأهم النتائج المستخلصة:

-ظلت الخلافة -طوال تواجد الأتراك في الجزائر العثمانية - معلما هاما في حياتهم، لأن الخلافة - في عرف الجزائريين - ولو كانت شبحا باهتا، فهي الهيكل الذي يحمي الإسلام، ويجعله فاعلا في حياة الناس.

-تمكن أبو القاسم سعد الله في كتاباته الموسوعية، من تخصيص مباحث، حول عناصر الهوية في العهد العثماني، والتي أظهرت أهمية هذه الفترة ضمن تاريخ الجزائر، ماضيه ومستقبله، لأنها مرحلة فاصلة، تجذرت فيها عناصر الهوية وتعمقت في النفوس، وبرزت الشخصية الجزائرية التي حافظت على مقومات الشعب الجزائري ولاسيما في العهد الاستعماري.

- كشفت حياة الشيخ الصوفي عبد الرحمان الأزهري عن قيمة رحلته إلى بلاد دارفور في القرن الثامن عشر، والتي مثلت رابطا قويا، وتاريخا مشرفا للجزائر، ومساهمته في نشر العلم، وربط العلاقات الروحية بين المسلمين. وجعلته يكسب شجاعة في رعاية الجزائريين في

مدينة الجزائر وفي بلاد القبائل في فترات متلاحقة، ما زالت آثارها ماثلة إلى اليوم.

- نعتز بالدور العلمي للشيخ المختار بن أحمد الكنتي، الذي وصل بنفسه إلى مجاهل إفريقيا وصحرائها القاصية، ونشر علمه بين البربر، والزنوج. وسهر على بناء المدارس والمساجد والزوايا التي حافظت على القيم الدينية، والتماسك في المجتمع. وقام بإحياء الطريقة القادرية والتي كانت مجالا للتأطير، ولكن الإسلام كان الأساس في توحيد الناس في ربوع كثيرة في الجنوب الجزائري، وفي تمبكتو، والنيجر، ونيجيريا وغينيا والسنغال وغيرها، وترك جيلا من الطلبة والتلاميذ الذين حفظوا تراثه، وبلغوا دعوته.

- لقد سنت السلطة العثمانية معاملات استثنائية، عاملت بها فئة العلماء والصلحاء في البايلك، بإعفائهم من الضرائب، وإعطائهم بعض الصلاحيات، والمقصد تدعيم السلطة والوقوف معها، لأنهم مثلوا الواسطة المتينة مع المجتمع المحلي، كما ظهر من خلال دراسة وثيقة الإعفاء التي خص بها صالح باي قسنطينة، الشيخ سيدي عون السوفي وغيره من الأشراف في منطقة البهيمة، وسار على نهجهم سلاطين بني جلاب، بإعفاء أولاد سيدي مسلم بتاغزوت. وبقي الإعفاء ساري المفعول إلى زمن دخول الفرنسيين.

- يعتبر تاريخ العدواني وثيقه تاريخية هامة، حول تعمير القرى القديمة بوادي ريغ، وتسمياتها وجذورها العربية. وازدهارها الاقتصادي، وتطورها الاجتماعي، حتى نالت المرأة مكانتها الدينية والسياسية. مما يحتم التعمق في البحث المتأني في الكتاب، واستخراج أخباره، واستثمارها في الكتابة التاريخية العلمية.

- كان للطرق الصوفية دورها في الجنوب الشرقي، وأبرزها - بداية من القرن السادس عشر - الطريقة الشابية، ودور شيوخها، وأهمهم سيدي عرفة الشابي السياسي، والشيخ سيدي المسعود الذي اهتم بالدعوة إلى الله في ربوع وادي سوف، وحث على تشييد المساجد وتجديد القديم منها، وأوصى ولده علي بن مسعود بمتابعة النشاط العلمي والروحي. واستمر شيوخ الشابية في التواصل مع وادي سوف إلى القرن التاسع عشر، ولهم مساجد ومزارات تحمل اسمهم، وتدل على أثرهم في زمن عز فيه فعل الخير، ونشر العلم، والتمسك بالتقوى والعمل الصالح.

- عرفت الجزائر الأوبئة عبر تاريخها الحديث، وكانت العلاقات الخارجية وحركة تنقل السكان من أبرز أسباب انتقاله، ولم تتخلف السلطات الحاكمة عن محاربته، ومعالجة الوضع بالحجر الصحي، وأقصاه غلق الحدود البحرية، والامتناع عن استقبال السفن والبضائع. ولكن الحالات المرضية تم علاجها بالطب الشعبي، والعلاج الروحي، الذي

يلتمسونه عند المرابطين، أو العلاج في المستشفيات الحديثة. ورغم الصعوبات، استمر المجتمع في ممارسة نشاطاته المختلفة، الزراعية، والصناعية والتجارية. وبقي الناس يمارسون عباداتهم وهي الصلاة في المساجد، وتنظيم رحلات الحج في بؤرة الوباء ولم يثنهم الخوف على حياتهم، لأن ثقتهم في الله هي الدافع لذلك السلوك.

ويبقى هذا الكتاب نموذجا تاريخيا، شمل عينات من الجانب الاجتماعي، تمت دراستها في ظروف مختلفة ضمن البحث الأكاديمي في الجامعة الجزائرية، وانجزت البحوث للمشاركة في المنتديات العلمية، مما أكتسبه الطابع المنهجي العلمي، الذي غلب على خطه العام، ونتمنى أن يعم نفعه، وينتشر بين الباحثين، ويكون نبراسا لدراسات جديدة، تعمق مفاهيمه، وتثرى معلوماته وأخباره، وتحقق الغامض منها، حتى تكتمل الصورة، وتتضح الحقائق التاريخية.

# قائمة المصادر والمراجع

**أولا: المصادر:**

1-التلمساني ابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908.

2- بفايفر سيمون، **مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر**، تر أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.

3- ابن حمادوش عبد الرزاق، **لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال**، تح أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2011.

4-ابن خلدون، **العبر**، دار الفكر، 2000، ج7.

5- خوجة حمدان بن عثمان، **إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء**، دار الطباعة السلطانية، إسطنبول، د ت.

6- (ـــ، ـــ)، **المرآة**، ترجمة وتحقيق محمد العربي الزبيري الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.

7-الزيان أبو القاسم، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحراً**، تح عبد الكريم الفيلالي، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1991.

8- كاثكارت جيمس لندر، **مذكرات اسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب**، تر إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.
9- المدني أحمد توفيق، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار**، تحقيق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1980،
10- ابن أبي الضياف أحمد، **إتحاف أهل الزمان بإخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، الدار التونسية للنشر- تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر، 1977، ج2.
11- العدواني محمد بن عمر، **تاريخ العدواني**، تح أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996.
12- العنتري محمد الصالح، **فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها**، تح يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009.
13- الفكون عبد الكريم، **منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1987.
14- سبنسر وليم، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تع عبد القادر زبادية، الجزائر، 2006.

15- شالر وليام، **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824**، تع إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

16- الوزان الحسن: **وصف افريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1983، ج2.

**ثانيا : وثائق أرشيفية:**

17- A.O.M. 17H41. Notices de Mosquée de Sidi El Messaoud ( Mosquée de Marche )-1913.

18-D. D. M. E: Classe Dirigeante de l'Annexe d'El-oued- S. D.

**ثالثا: المخطوطات:**

19- التليلي محمد الطاهر، **الفوائد المنثورة من المطالعات المبتورة**، مخطوط.

20- (ـــــ، ـــــ)، محمد الطاهر التليلي: **من تاريخ وادي سوف**، مخطوط لدى المؤلف.

21- بن دومة الشيخ محمد الطاهر: **مذكرة أخبار تاريخية لواحة تقرت وبعض ضواحيها**.

22-العدواني، **مخطوط العدواني**، نسخة أحمد خراز، غلاف المخطوط، لدي نسخة منه.

23- سالمي مصطفى: **الدر المصفى**، رتب مادته وصنفه وعلق عليه: علي غنابزية(مخ) أوت 1999-سبتمبر 2001.

**رابعا: المراجع:**

24- انطونيوس جورج: **يقظة العرب**، تر، ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، ط5، بيروت، 1978.

25-البختري أحمد: **الجديد في أدب الجريد**، الشرطة التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1973 .

26-برنار لويس: **اسطنبول وحضارة الخلافة العثمانية**، تر وتع سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، الرياض، 1982.

27- بلحميسي مولاي: **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

28-بن علي محمد الصالح: **الألغاز الشعبية في وادي سوف** ، دار الشهاب، ط1، باتنة ـ الجزائر، 1998.

29- بوباية عبد القادر: " **قيام حكم بني جلاب بوادي ريغ**"، ضمن مدونة الملتقى التاريخي الثالث المنعقد بمقر متحف المجاهد بتقرت من طرف الجمعية التاريخية الوفاء للشهيد بتقرت، أفريل 1998،

30- بوعزيز يحي، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، دار البصائر، الجزائر، 2009، ج1.

31- (ـــ، ـــ)، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، دار البعث، ط1، قسنطينة-الجزائر، 1980.

32- التميمي عبد الجليل، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي الجزائر وتونس وليبيا1816-1871**، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان 1985.
33- تشرشل، شارل هنري، **حياة الأمير عبد القادر**، الدار التونسية للنشر- تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر، 1974.
34-ابن تيمية: **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، دار الزهراء للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 1990.
35- الجيلالي عبد الرحمن، **تاريخ الجزائر العام**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر، 1994، ج3، ج4.
36- الحفناوي أبو القاسم، **تعريف الخلف برجال السلف**، موفم للنشر، الجزائر، 1991.
37- الحسيني الشريف كمال دحومان: **أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري**، دار الخلدونية، ط1، الجزائر، 2009.
38- حوى سعيد: **الإسلام**، شركة الشهاب، ط2، الجزائر، 1988.
39- خدوسي رابح وآخرون، **موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين**، منشورات الحضارة، الجزائر 2014، ج 1.
40- بن خروف عمار، **العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في**

**القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي**، دار الأمل الجزائر، 2006، ج1.

41- الزبيري محمد العربي، **التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1984.

42-زغب أحمد: **الشعر الشعبي الجزائري من الإصلاح إلى الثورة (الهادي جاب الله نموذجا 1882-1978)**، مطبعة مزوار، ط1، الوادي-الجزائر، 2009.

43-الماوردي: **الأحكام السلطانية**، دار الكتب العلمية، د ط، د ت.

44- مفتاح عبد الباقي، **أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية**، دار الوليد، الوادي – الجزائر، 2004،

45- (ـــ، ـــ)، **أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته**، دار الهدى، عين مليلة – الجزائر، 2008.

46-محمد بن الأمير عبد القادر: **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر**، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903، ج2.

47- المدني أحمد توفيق، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792**، دار البصائر، ط1، الجزائر، 2007.

48- (ـــ، ـــ)، **محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986،

49- ناصر محمد، **المقالة الصحفية الجزائرية نشأتها. تطورها. أعلامها من1903 إلى 1931**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر، 1978، مج1.
50- عباد صالح، **الجزائر خلال العهد التركي 1514-1830**، دار هومة، ط2، الجزائر، 2007.
51- العجم رفيق، **موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي**، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت،.
52-العدواني محمد بن عمر: **تاريخ العدواني** ، تح أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996.
53- العوامر إبراهيم، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تح الجيلاني العوامر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، الدار التونسية للنشر- تونس، 1977.
54- عيساوي عبد الغني، **الإعلام بأعلام الجزائر من كتاب الأعلام للزركلي**، أوراق ثقافية، ط1، جيجل – الجزائر، 2016،
55- فايست أوجين، **تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792-1873م**، ت صالح نور، دار قرطبة، ط1، الجزائر، 2010.
56- القشاعي فلة موساوي، **الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني واوائل الاحتلال الفرنسي1518-1871**، وزارة الثقافة، الجزائر، ب ت ن.

57-قادري عبد الحميد: **التعريف بوادي ريغ**، منشورات جمعية الوفاء للشهيد بتقرت، ( دط)، ( د ت ط).
58- سليمان أحمد السعيد، **تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل**، دار المعارف، القاهرة،.
59- سعد الله أبو القاسم، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1990، ج3. ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ج4.
60- (ـــ، ـــ)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998، ج1، ج2،ج4.
59- (ـــ، ـــ)، **حاطب أوراق**، دار المعرفة، الجزائر، 2011.
60-(ـــ، ـــ)، **حبر على ورق**، منشورات دار المعرفة، الجزائر، 2011.
61-(ـــ، ـــ)، **الحركة الوطنية الجزائرية**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992، ج1، ج2.
62-(ـــ، ـــ)، **خارج السرب مقالات وتأملات**، منشورات دار البصائر، ط2، الجزائر، 2009.
63- (ـــ، ـــ)، **قضايا شائكة**، منشورات دار المعرفة، الجزائر، 2011.
64-سعيدوني ناصر الدين، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية**

**والثقافية لولايات المغرب العثمانية**، نشر حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الحادية والثلاثون، جامعة الكويت، 2010.
65- (ـــ، ـــ)، **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984،
66- (ـــ، ـــ)، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1985.
67-الشابي علي ، **عرفة الشابي رائد النضال في العهد الحفصي**، الدار العربية للكتاب، تونس-ليبيا، 1982.
68- علي الشابي، **تاريخ الشابية خلال العهدين الحفصي والعثماني من سنة 1431إلى سنة 1867**، دار نقوش عربية، ط1، تونس، 2015.
69-ابن العماد الدمشقي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط1، دمشق- بيروت، 1993، المجلد 10 .
70- شويتام أرزقي، **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830**، دار الكتاب العربي، ط1، الجزائر، 2009.
71-هلايلي حنيفي، **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، دار الهدى، ط1، عين مليلة ـ الجزائر، 2008.
72-وزناجي مراد، **حوار صريح مع أ. د. أبو القاسم سعد الله**، منشورات الحبر، الجزائر، 2008.

73-وولف جون، **الجزائر وأوروبا 1500-1830**، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2005.

74- H. D. De Grammont, Histoire d'Alger sous la Domination Turque 1515-1830 ..Ed. Leroux , Paris,1887

75- Fray Diègo de Haedo, Histoire des Rois d'Alger, Trad par Delmas De Grammmont, éd Adolphe Jourdan, libraire-Editeir,Alger,1881.

76- Nadjah Ahmed: le Souf des Oasis- édition la maison des livres-Alger,1971.

**خامسا: الرسائل الجامعية:**

77- الحسني عبد المنعم قاسمي، **الطريقة الخلوتية الرحمانية : الأصول والآثار منذ ظهورها إلى غاية الحرب العلمية الأولى**، رسالة دكتوراه تحت اشراف الدكتور عمار جيدل، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2008/ 2009.

78- عمراني معاذ، **أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ميلاديين**، رسالة ماجستير، مرقونة وغير منشورة، تحت إشراف الدكتورة فاطمة الزهراء قشي، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، نوقشت في 9 أفريل 2003،

79- غنابزية علي، **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ/19م**، رسالة ماجستير، تحت إشراف الدكتور عمر بن

خروف، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2001.
80- سعيدي خير الدين، **المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني 1700-1830م**، أطروحة دكتوراه علوم، تحت اشراف الدكتور شايب قدادرة، قسم التاريخ، جامعة 8 ماي قالمة، الموسم 2018 -2019.

81–Jean Marchika, La Peste en Afrique Septentrionale, Histoire de la Peste en Algérie de 1363–1830,thèse de médecine, a Alger 1927 .

82- Bataillon: le Souf étude de Géographie Humaine, université d'Alger. Institut de Recherches Sahariennes. .

**سادسا: المقالات في المجلات:**

83- بوسليم صالح، محمد الزين، " **حركة التصوف ونشاط الطرق الصوفية بإقليم توات وافريقيا الغربية خلال القرنين 12-13هـ / 18-19 م، حياته ومآثره"**، في مجلة الحوار المتوسطي،، جامعة سيدي بلعباس، العدد الخامس.
84- زغب أحمد: "**صدى الحركة الإصلاحية بوادي سوف**"، مجلة القباب، دار الثقافة بالوادي، العدد 01، جوان 2004،
85- كنتاوي نور الدين، " **الشيخ المختار الكنتي الكبير، حياته ومآثره"**، في مجلة رفوف، مخبر المخطوطات الجزائرية في افريقيا، جامعة ادرار – الجزائر، العدد الثامن، ديسمبر 2015.
86- موسى سليمان، "**المنشور الأول للثورة العربية الكبرى وتوزيعه**

**في شمال افريقيا "**، المجلة التاريخية المغربية، العدد 87، تونس، جانفي 1977،

87-بن نعمية عبد المجيد، فرح سعد، " **قراءة في مخطوط الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد محمد الخليفة بن المختار الكنتي (ت 1242 هـ /1826م) "**، في المجلة الجزائرية للمخطوطات، جامعة وهران 1- الجزائر، العدد 14، يناير 2016.

88-علي الشابي: " **مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية" ـ** في ـ المجلة التاريخية المغربية، يناير، تونس .

89- سعد الله أبو القاسم، " **اللغة العربية في مواثيق الحركة الوطنية"** في مجلة الكلمة، الصادرة عن الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، العدد الرابع، شعبان 1413-يناير 1993.

90- بن سعد محمد السعيد، " **الشيخ سيدي المختار الكنتي العقبي، حياته وآثاره"**، في مجلة الذاكرة، مخبر التراث اللغوي والادبي في الجنوب الشرقي الجزائري، جامعة ادرار – الجزائر، العدد السابع، ماي 2016.

91- غنابزية علي: " **المسعود الشابي: الرحلة العلمية والأثر الدعوي"** ، جريدة النبأ، الجزائر، جويلية 1999، العدد313.

**سابعا: المراسلات والمقابلات:**

**أ- المراسلات:**

92-رسالة رئيس مركز تطاوين إلى المقيم العام الفرنسي بتونس، 5 جويلية 1915، وما ورد في الوثائق الفرنسية، ( DHF) 2ème Série. N:18. p60.

93-نسخة من الرسالة عليها ختم الزاوية القادرية بالرويسات، وهي منشورة ضمن كتاب رسالة الطريقة القادرية، تأليف اعميراوي احميدة.

94-رسالة رجال الشابية بالجريد إلى إخوان لهم بقمار حول المسجد العتيق في الملحق.

**ب-اللقاءات الشخصية:**

95-لقاء مع السيد ميدة كمال، حمدي رشدي يوم 1997/08/25 والهاشمي ابراهيمي يوم 25 اوت 1998، بسيدي عون.

96-لقاء مع السيد أحمد خراز ببيته يوم الخميس2001/05/10.

97-لقاء مع أحمد خراز ببيته بالوادي يوم الجمعة 2005/06/03.

# فهرس الموضوعات


| المواضيع | الصفحة |
|---|---|
| **-الإهداء** | **3** |
| **-المقدمة** | **5** |
| **القسم الأول**<br>**الخلافة وعناصر الشخصية الجزائرية في العهد العثماني** | **13** |
| أولا: قدسية منصب الخلافة الإسلامية (العثمانية) لدى الجزائريين | **15** |
| ثانيا: الشخصية الجزائرية في العهد العثماني من خلال كتابات الدكتور أبو القاسم سعد الله | **45** |
| **القسم الثاني**<br>**الدور الاجتماعي للعلماء في الجزائر وإفريقيا وأثرهم الدعوي والصوفي** | **63** |
| أولا: الدور الدعوي والروحي للشيخ عبد الرحمن الأزهري الجرجري في إقليم دارفور بالسودان وأثره على الجزائر ما بين 1754- 1763 | **65** |
| ثانيا: دور الشيخ المختار الكنتي الكبير في نشر الإسلام وتعاليمه في افريقيا الغربية والوسطى في القرن 18م | 77 |

| | |
|---|---|
| **القسم الثالث**<br>**تأسيس المجتمع المحلي وعلاقته بباياك الشرق الجزائري** | **85** |
| أولا: علاقة سيدي عون بن مهلهل السوفي بصالح باي قسنطينة من خلال وثيقة الإعفاء من دفع الضرائب السلطانية. | **87** |
| ثانيا: ملامح مجتمع وادي ريغ من خلال تاريخ محمد العدواني | **114** |
| **القسم الرابع**<br>**المجتمع الجزائري والعلاقات الداخلية والخارجية في العهد العثماني** | **137** |
| أولا: دور الطريقة الشابية الدعوي والاجتماعي في الجنوب الشرقي الجزائري ووادي سوف (1540-1860م) | **139** |
| ثانيا: تأثير الأوبئة على العلاقات الإنسانية في الجزائر داخليا وخارجيا خلال العهد العثماني (1518-1830) | **163** |
| **- الخاتمة** | **199** |
| **-قائمة المصادر والمراجع** | **203** |
| **- فهرس الموضوعات** | **216** |

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي الجزائر
كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية
إصدارات
مخبر بحث التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للجزائر

عرفت الجزائر عبر مراحلها التاريخية، بأمجادها الحافلة، وإنجازاتها الناصعة، والمنبعثة من أفكار وأيادي أبنائها البررة، وصارت نبراسا منيرا في صفحاتها الخالدة. وتتجلى الحياة الاجتماعية بمظاهرها الثقافية والدينية البارزة في مختلف طبقاتها، والتي نبعت منها الشخصية الوطنية في العهد العثماني.

إن الدارس المتفحص لهذه الفترة المجيدة - في هذا الكتاب - يكتشف مظاهر الهوية التي بقيت محافظة على عناصرها الساطعة، لأنها وجدت البيئة الصالحة، والفسحة الرحبة، والرسوخ الإيماني في النفوس والأفئدة. وقد مثل العهد العثماني للجزائر، منعطفا هاما، تبلور فيه المجتمع الجزائري، وأخذت الشخصية الوطنية تتجذر من خلال الوحدة الترابية للوطن، وكان الشعور بالانتماء للجزائر، راسخ لدى الحكام، فلم يتنكروا للبلاد قيد أنملة، بل دافعوا عليها إلى آخر رمق، وبذلوا أقصى ما عندهم من جهد، ولكن الخصم كان أقسى، فسقطت البلاد، ولم تسقط الهوية، وبقية الشخصية الوطنية الجزائرية صامدة إلى اليوم.

ISBN: 978-9969-574-30-2
سامي للطباعة والنشر والتوزيع